السكرية

ALSOKARIA

حب برعم

عنوان الكتاب: حب برعم
اسم الأديب : محمود جمال مقدادي
رقم الإيداع : ٢٠١٧/١٢/٦٤١٩
الترقيم الدولي: ٤-٠٧٦-٦٧-٩٩٥٧-٩٧٨
المدير العام : محمد سلامة
تصميم الغلاف : م. أحمد البهنساوي

الطبعة الأولى
١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة
دار السكرية للطباعة والنشر والتوزيع
ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي او الجزئي.
أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه.
أو تحويله رقمياًأو إتاحته عبر شبكة الإنترنت . إلا
بإذن كتابي مسبق من الناشر.

حب برعم

محمود جمال مقدادي

الكأس مشقوقة. الشق واضح وضوح الشمس. و على الرغم من وجود خمسة كؤوس جميعها خالية من أية شقوق، إلا أن السيد إبراهيم قام باختيار الكأس المشقوق تحديداً ليملؤه بالماء. ظنت زوجته أنه ملأ الكأس بقصد الشرب. لم تلقي بالاً للموضوع بداية على اعتبار أن صب كأس ماء فعل لا يستدعي الإنتباه أو حتى مجرد التفكير فيه. لكن طول الفترة الزمنية التي قضاها زوجها محدق في الكأس أثارت ريبتها. كانت جالسة معه لحظة صب الكأس. و بعد أقل من دقيقة غادرتهُ لجمع الملابس المنشورة على حبل الغسيل، و إعادة ترتيبهن في خزانتهما و خزانة ولديهما. استغرقتها تلك العملية قرابةَ نصف ساعة. و لَما عادت وجدت زوجها جالس يحدق في الكأس بذات الوضعية التي تركته عليها. حاولت إخفاء ريبتها بسؤاله متظاهرة بالمزاح «هل اتخاذ قرار شرب كأس ماء يلزمه كل هذا التفكير؟». عاد من شروده مبتسماً مجاراة لابتسامتها «لماذا لا يسقط الماء رغم وجود شق؟». إضافة لطفولية السؤال، فإن الزوج أيضا بدا كالطفل لحظة نطقه. و لم يكن للزوجة، باعتبارها أنثى، إضاعة هذه الفرصة لاتخاذها نقطة بداية لقضاء ليلة حمراء يدعمها غياب الولدين. تمايلت في مشيتها نحوه. عدَّلت وضعية فخذه الأيمن سامحَةً لنَفسها بالجلوس عليه محيطةً عنقَه بذراعيها قائلَة بدلال «لنَفرض أنَ الكأس مجموعة طبقات متلاصقة. و هذا الشق الذي يقلقك لم يصب سوى طبقة واحدة فقط». نطقها مليءٌ بالغنج. جلستها مغرية. و الولدين خارج البيت. بات متأكداً من إرخائها عنان شهوتها محاولةً ترويضه لكبح جماحها، و هو ما زاد من حيرته في كيفية زف الخبر إليها.

كلا العينان غارقَتان في العينين المقابلة. آلَمَتْهُ عضلاتُ عينيه غير جاهد بتفسير نَظرات زوجته، فمن المستحيل إخطاء الرجال في تفسير نظرة الشهوة لدى المرأة. على عَكْسها هيَ، حينما فَسَّرَتْ نظراته بأنها نظرات إنبهار و افتتان دون أنْ تكشفها على حقيقتها المليئة بالهَمِّ و الحزن حول كيفية نقل الخبر إليها، و تعكير مزاجها المُنْتشي.

منذُ زواجهما و هُما يُمَجِّدانِ قاعدة تلامس الأعين قبل تلامس الأجساد، و إلا فإن علاقتهما ستكون بهيمية لا مشاعر إنسانية سامية فيها. لكن اليوم، و على غير العادة، طال تجامع العيون. راقَها افتراض الأمر تَحَدِّ المُبادرُ فيه بالقبلة هو الخاسر. أدرك بفَراسَته ما تفكر به. أفرحه اعتبارها الأمر على هذا النحو، متيقناً أَنَ كبريائها سيمنعها من المبادرة بالقبلة. و عندها سيتمكن من إخبارها بالأمر دون إحتجاجها بأنه دائماً ما يعكر مزاجها. و إنْ كان السيد إبراهيم يحسب الأمور من هذه الزاوية فإن زوجته كانت في عالم آخر مستغربة تأخر قبلتهُ حتى الآن. دائماً ما كان هُوَ المُبادرُ. أمْكَنَها الإستناد لهذه النقطة لمعرفة أنَّ شيئاً آخر يشغل بالَه. لكنَ شدة شهوتها أعْمَتْها عَن التفكير بأي شيء آخر، فراحت تضرب بكبريائها عرض الحائط متجهة بجدعها صَوْبَ أحضانِ زوجها الذي لم يستوعب بدايةً أنَّهَا في طريقها لتقبيله.خلال أجزاءِ من الثانية اختلطت مجموعةُ أفكارٍ في رأسه، ماذا عن التحدي الخفي؟،هل أخطأت التقدير أنها فكرت على ذاك النحو؟، المجنونَةُ فعلاً تبادر لتقبيلي،أرى جدعها يتحرك نحوي، لابد أنْ أخبرها،

اقتربت كثيراً كثيراً. و قبلَ مليميترات قليلة من إطباق شفتيها على شفتيه تمكن منَ النطق بتلك الكلمتين متحملاً عذاب و آلام مَنْ يخرج سيفاً منَ جوفه «تَرَكْتُ العَمَل». فتحت جفنيها مكشرة عن عينين غير تينك المشبعتين بالشهوة. عينانِ جديدتانِ مليئتانِ بعدم الإستيعابِ، مع إمكانيةِ إبصار الغضب فيهما قادماً من بعيد.

قامت عن حضنه منتفضة. ابتعدت عنه ثلاث خطوات، ثم مشت بإتجاهه خطوتين. وضعت يديها على خصرها سائلةً إياه بنبرة أبعد ما تكون عن الغنج و الدلال «تَرَكْتَ العَمَلْ؟». لم يتكلم، اكتفى بتحريك رأسه بالإيجابِ مبتسم إبتسامة بلهاء. و كَمَن أصابه مَسٌ منَ الشيطان بدأت تذرع الغرفة بخطوات عشوائية في جميع الإتجاهات. تارة تعصر رأسَها بين يديها، و تارة أُخْرى تَشُدُ شعرها شَدَّاً خفيفاً. لا تقف إلا حينَ تنظر صوب زوجها، لتعودَ بعدها إلى مشيها العشوائي تهذي مع نفسها، إيجار البيت، مصاريف الأولاد، جمعية أم جَبر، الكهرباء، الماء، الغاز، الدُيون، عزومة أهلي بعد أسبوع، قسط تنكة الزيت ... تحاور نفسها بعَتَه كأنَّها تقومُ، بطريقة غير مباشرة، بذكر جميع إلتزاماتهم لزوجها الذي يراقبها مبتسماً بعدما باتَ متيقناً أن شهوة المال لدى النساء أقوى بكثير من شهوة الجنس. صرخ طالباً منها التوقف عمَّا تقوم به. استدارت نحوه و قد تملكتها جرأة لم يتوقعها، ثم هتفت محتجَّةً «كيف سنتدبر أمورنا؟ من أينَ سندفع إلتزاماتنا؟ و الولدين ما ...». حدجها بنظرة صارمة أسكتتها دون أنْ يأمُرَها بذلك. قامَ من مجلسه مُطأطِئَ الرأس، شابكاً يديه خلف ظهره غارقاً في تفكير عميق. زوجَته

مثبتة نظراتها عليه كمن ينتظر سماع خبر قذع. قال دون النظر إليها «نعيم سَيَعْمَل». اكْفَهَرَّ وجهها. ناشدته أنْ يكون ما قاله مجرد مزاح. صمته يؤكد أنه في منتهى الجدية. «إنه في السابعة عشر من عمره، لم ينضج بعد، و...»أضافت كأنَّها قد تذكرت فجأةً «و مدرسته، ماذا عن مدرسته؟!». حاولت ثني زوجها عن قراره بتلك الكلمات محاولة تذكيره أنَّ بكرهما ليس مؤهلاً بعد لدخول سوق العمل. لكنَّهُ، بعقلية الرجل الشرقي، أفسد جميع محاولاتها بعد أن قالَ بكَل هدوء «سَيَتْرُكُ المدرسة، شوارع الحياة ستعطيه دروساً أعظَمُ من أنْ تحتويها الغرفَ الصفية. حياتنا صعبة، و عليهَ النضوج سريعاً ليكونَ أصْعَبَ منها و إلا سأضيفه لقائمة هُمومي كما أَضَفْتُك منذ زمن بعيد ...» شَزَرَها مكملاً كلامه « ...سأذهبُ للنوم. إيَّاك وَ إيقاظي، سأستيقظ وحدي». بمُنْتَهى الحزن و الهدوء راقبته يَلِجُ غرفة نومهما وحيداً. اعتراها شعور عميق بالكراهيةَ لكل ما حَولها مُخَمِّنَةً أن موجودات غامضة، لم تَدّر كُنْهَها، تآمرت عليها لإفساد حياتها، فهاهي المشاكل المالية قادمَة لتُكَدِّر صفو عيشها، و مستقبل ابنها على المحك، سيدفع ضريبة فشل أبيه منذ الآن، و فوق كل هذا الليلة الحمراء لم تكتمل. لم تُطقْ كل هذا. راحت تضرب بصمت كل ما يقع عليه نظرها. صفعتَ طاولة الطعام، أسقطت كراسي الجلوس، كسرت الكاسات بركلات طائشة عدا الكأس المشقوقة إذ مرت بجانبها و كأنها لم تراها. كانت تضرب حارصةً ألا يسمع زوجها نشيج بكائها. ضربت و في داخلها تلعن زوجها و عنجهيته دون أن تدري أنه في غرفة النوم ينظر إلى صوره مع عائلته و الدموع تسيل على وجنتيه.

❖❖❖❖❖

أصعب ما واجه السيد إبراهيم هو كيفية فتح الموضوع مع نعيم. يسحب نفساً طويلاً من سيجارته ثم يمعن النظر في السقف. ينتزع نفساً أطول ثم يطيل النظر في نعيم الجالس أمام التلفاز يداعب خصل شعره الناعم بأنامله الصغيرة. كيف أبدأ، يسأل نفسه. زوجته تجلس قبالته، ترشف قهوتها على مهل متظاهرة بالتفكير في شيء ما. يعلم أنها تنتظر بلهفة ما سيحصل. يُسرُّ أمراً في ذاته ثم يبتسم. يقوم من مكانه قاصداً الجلوس جنَب نعيم. يضحك في داخله خلال مشيه، فإن لم يكن يرآها، إلا أنه يعلم أن زوجته تنظر إليه بطرف عينها. يعتدل نعيم في جلسته مفسحاً مكاناً ليجلس والده. «كيف حالك؟» يسأل الوالد بعد برهة. «بخير» يجيب مستغرباً سؤال والده. بعد لحظة صمت، و تحديق نعيم في والده، يأخذ السيد إبراهيم نفساً عميقاً «ما رأيك في المشي لبعض الوقت؟». إياد، في الغرفة الأخرى، يسمع عرض والده. يركض صائحاً من قبل حتى إجابة نعيم «نعم، نعم، فلنذهب للمشي بعضاً من الوقت». «لم أكلمك أنت» يَزْجُرُهُ والده بغضب. «هيا، سأنتظرك في الخارج» أكمل كلامه مخاطباً نعيم دون سماع إجابته، و كأنَّ ذلك السؤال مجرد قرار ديمقراطي تمت الموافقة عليه بطريقة ديكتاتورية.

❖❖❖❖❖

سارا طويلاً دون النطق بأي كلمة. يستغرب نعيم دعوة والده المفاجئة، يسأل نفسه عن سببها دون أن يجرؤ على سؤال والده. لم يكسر الصمت إلا بائع ذرة متنقل، ما أن رآه السيد إبراهيم حتى سأل نعيم «ما رأيك بكأس ذرة؟». أومأ موافقاً. خلال إعداد البائع لكأسي الذرة، فَطِنَ أنَّ والده لم يذهب اليوم للعمل. لم يتحمس لسؤاله عن السبَب متأكداً أنه سيعرف عمَّا قريب. جلسا في حديقة عامة. بقي السيد إبراهيم على صمته كأنه يكافح لعدم خروج الكلمات من فمه. الصمت يكتم شيئاً فشيئاً على أنفاس نعيم، لم يشعر بنفسه و هو يقول «لم تذهب إلى العمل». و كمن يزيح عبئاً ثقيلاً عن كاهله أخرج السيد إبراهيم نفساً طويلاً «اقتربت المدرسة». لم يعرف إن كان والده يسأل أم يقول حقيقة في اللحظة التي سبقت إضافته «هل أنت متحمس للعودة؟». «لا أعلم» توقف لأكل ملعقة ذرة «عندما أتذكر اقتراب موعد المدرسة أشعر ببعض الحزن، لكني، من ناحية أخرى، مللت هذه العطلة التي قضيتها جالساً في البيت». أحَسَّ أن ابنه اقتنص تلك الفرصة لإعلامه، بطريقة غير مباشرة، أنه مُقَصِّرٌ بحقوقه الترويحية. «مللت الجلوس في البيت» تحدث السيد إبراهيم بنبرة من يواجه مشكلة معقدة، قبل إكماله كأنَّهُ وجد حلاً للمشكلة بعد تفكيرٍمُضْنٍ «ما رأيك بالعمل إذن؟». نظر مباشرةً في عيني والده «بقي أسبوعين للمدرسة». سَرَحَ قليلاً في عيني ابنه، ثم أشاح نظره نحو الأرض. أكل ملعقة ذرة آملاً أن تُلَيِّنَ حلقه لقول تلك الكلمات «تَتْرُك المدرسة». «أترك المدرسة!» أعاد مصدوماً ،و فجأة، كأنَّما لمعت فكرة في رأسه، قال لوالده و ابتسامة تعلو وجهه «إنك تمزح يا أبي، أليس كذلك؟».

الوالـد صامـت. يعيـد سـؤاله مـع اختفـاء البسـمة «ليسـت مزحـة؟». «بـني» يزفـر السـيد إبراهيـم «طُـرِدّتُ مـن العمـل، مصاريفنـا تـزداد، الحيـاة تسـتحيل مـن صعـب إلى أصعـب، أحتـاج وقوفـك بجانـبي، لـن...». قاطعـه نعيـم غـير آبـه لمـا يقـول «ألم تكـن دائمـاً تحدثـني عـن أهميـة العلـم؟، أنسـيت وصايـاك لي و لأخـي بالمواظبـة علـى دروسـنا لتكـون لنـا مكانـة إجتماعيـة مرموقـة عندمـا نكـبر؟، و وعـدك...مـاذا عـن وعـدك لي بـإذا مـا نجحـت في الثانويـة العامـة لسـوف تضمـني للجامعـة و لـو كلفـك الأمـر بيـع أعضـاء جسـدك؟، و الآن، علـى بُعُـد أسـبوعين فقـط مـن المرحلـة الثانويـة، تأمرنـي بترك المدرسـة!». اسـتمع لمداخلـة ابنـه بإنصـات لم يتخللـه سـوى أكلـه لملعقـة ذرة. وضـع يـده علـى رأسـه «لأكـن صريحـاً معـك، أؤمـن بقدرتـك علـى اجتيـاز الثانويـة العامـة. لكنـك لـن تحصـل علـى تقديـر يؤهلـك للحصـول علـى منحـة جامعيـة شـاملة. و هكـذا سـيكون نجاحـك بـلا فائـدة، سـتذهب سـنتان مـن عمـرك هبـاءاً. لـن أخدعـك بالقـول لـدي مقـدرة تدريسـك جامعـة علـى حسـابي. لا أسـتطيع و لـن أسـتطيع». «أبـي، مـن قـال بعجـزي عـن اجتيـاز الثانويـة العامـة بامتيـاز؟ حصـولي علـى تقديـر جيـد في الإعداديـة سـببه تقصـيري و إهمـالي لواجباتـي، و هـو مـا سـأجتنبه في الثانويـة. سـأدرس سـت سـاعات يوميـاً علـى الأقـل. ففـي نهايـة المطـاف الثانويـة هـي أسـاس دخـول الجامعـة و لا أحـد سـيلتفت للإعداديـة». سـأله مسـتهزئاً «مـن أقنعـك بهـذا الـكلام السـخيف؟». لم يكـترث لنـبرة والـده السـاخرة «محمـود يـا أبـي، إنـه محمـود ابـن خـالي. الآن يـدرس في الجامعـة. كَلَّمَـني حينمـا رأى حزنـي لتحصيلـي في الإعداديـة، فأخبرنـي عـن صديقـين لـه، أحدهمـا كان تقديـره

ممتاز في الإعدادية لكنه أخفق في الثانوية فلم يدخل الجامعة. أما الآخر حصل في الإعدادية على تقدير مقبول...» و هنا شَدَّدَ نعيم على كلمة مقبول « ...و في الثانوية بذل مجهوداً عظيماً مَكَّنَهُ من الإمتياز. هو الآن يدرس في إحدى الجامعات الأجنبية مجاناً، لا بل إنه فوق ذلك يأخذ راتب.» زادت ثقته بنفسه فراح يُكمل «الأمر لا يقف عند حدود المرحلة الإعدادية. بإمكاني تدارك الأَمر». كيف يرد بعد هذا؟ و من أين خرج له محمود ذاك؟ فقط راح ينظر حوله في الحديقة و يحاور ذاته،آه...كبرت يا نعيم، كبرت يا بني. هل أخدعك أم أخدع نفسي؟ لماذا لا أعترف لك بالحقيقة؟ لماذا أعجز عن مصارحتك بفشلي و عجزي عن تدبر مصاريف البيت لوحدي؟ كيف أخبرك أن مشوارك الدراسي لم يعد يعنيني؟ و كل ما بات يهمني هو المال...المال فقط لا غير. «أبي» أخرجه نداء نعيم من أفكاره. «ماذا قلت؟» سأل نعيم. «هل تُحبُني؟» صَعَقَهُ السؤال، و راح يجيب بالتأكيد كأنه يستجيب لأمر طَارئ أو تخبره مجسات جسده باستشعار أمر خطير. جثى على ركبتيه ليصبح بمستوى طول ابنه «أتحبني فعلاً؟» أعاد السؤال بنبرة أعمق. لم يُجِب. رَكَّزَ جميع قدرات حواسه في حاسة السمع. يعلم ما سيقوله والده من قبل أن ينطقه. «يرضيك رؤيتي أستدين المال؟»، «تدري قد تصيبني علة ما جَرَّاء التفكير و القلق؟»، «أيقف حبك لي عند حدود القول ولا يتعداه إلى العمل؟». لا ينطق نعيم. يقف على حافة البكاء. عيناه حمراوان. و الدموع متأهبة فوق جفنيه. «أمك الضعيفة المسكينة، و أخوك إياد الصغير...». يجهش نعيم بالبكاء. صوت بكائه الصادق يجذب أنظار بعض المارة. يضمه الوالد إلى

صدره. شفتاه تُقَبِّل رأسه، و يسراه تلاعب شعره. يشعر بحرارة دموعه فوق صدره، تكاد تلامس قلبه فيتسارع نبضه. «الأمر عائد إليك» يهمس في أذنه. «لن أجبرك على شيء» يقول و قد رفع عينيه حادجاً الفضوليين فينصرفون إلى شؤونهم. توقف بكاؤه، مع إبقاء رأسه مدفوناً في صدر السيد إبراهيم، يُفَكِّرُ بدهائه، أيُّ إنسان ذاك الذي يغلق جميع الأبواب في وجهك ثم يقول لك حرية الإختيار! كيف يذكر كل تلك المخاطر ممكنة الحدوث ليَليَها قوله أنَّهُ لا يجبرك على شيء! كيف وصل درجة الأنانية هذه حيث لا شيء سوى هدفه الخاص، حتى دموع ابنه لم تردعه! لم يعتذر لصغيره متراجعاً عن قراره و عجلته في تحميله عبء و شقاء الحياة من الآن. بل تظاهر بإعطائه حرية القرار. ما كان يحير نعيم أكثر من ذلك هو إن كان أباه على دراية بالدور الذي يمارسه الآن. هل يجهل ممارسته لدورين في آنٍ واحد، أم أنه على علم بذلك لكنه لا يبالي؟. فهو ظاهراً الوالد المتعاطف مع نعيم، و هو باطناً السيد إبراهيم الذي لا يرى نصب عينيه سوى مصلحته. بحث عن أي إشارة تثبت إنزعاجه من انفصامه الواعي. أملَ بالقبض على نبرة خزْي في حنجرة والده تريح تساؤله فيما إذا كان والده واعٍ أم غير واعٍ فيما ينصحه به. و بفكرة خطرت بباله كلمحة عابرة، دون أن يفهمها تماماً، رَمَقَ أن وعي والده الواعي يتركز فقط في حدود وجوده الشخصي، فإذا ما تجاوزه يبدأ بممارسة وعي لا واعي. تلك الأفكار كانت تدور و تتداخل في رأس نعيم المدفونً في صدر والده إلى أنْ مَلَّها عند نقطة معينة، ليس لعدم قدرته على استنتاج و تحليل المزيد من الأمور في شخصية والده، بل ليقينه أنَّ لا شيء

سيردع السيد إبراهيم عن قراره مهما حاول و فَعَلْ. تَخَيَّلَ شكل مدرسته، ثم أخرج رأسه من صدر والده قائلاً بلا أي مشاعر «منذ الغد سأبحث عن عمل». كادت إبتسامة تظهر على شفاهه لولا خوفه من رؤية نعيم لها، فقام بكبتها متظاهراً بالحزن و الَضيق تماشياً مع طبيعة الموقف «صدقني، كل هذا لمصلحة الجميع...» راح يضيف بنبرة العاجز عن فعل أي شيء « ...كثيرون ينجحون في دراستهم لكن يفشلون في حياتهم العملية. و على العكس منهم هناك من لا تواتيه الفرصة لإكمال دراسته لكنه ينجح في حياته العملية. الأمر يحسمه أي الطريقين تختار. طريق الدراسة سهل و مريح لكن للحظ فيه الغلبة على الإرادة و التصميم. على الحظ أن يحالفك كثيراً لإكمال مسيرتك العملية بعد إنهاء الدراسة. فأنت تخرج من عالم لتدخل عالماً آخر مغايراً تماماً للعالم الذي كنت فيه. أما طريق العمل الصعب، المُذل، و الشاق، لا حَظَّ فيه. ركائزه ما تطمح إليه. لن تغادر من عالَم إلى آخر، بل ستبقى في نفس العالم و كل ما عليك معرفته هو كيفية السير فيه. عليك المشي في أفضل الطرق و الإبتعاد عن نظيرتها المليئة بالعقبات. إنَّهُ عالم قذر لكنه عادل. بمقدار ما تبذل لأجله يكافئك. سيأخذ منك لكن سيعطيك أكثر. إرادتك و ذكاؤك هما المعيار». نعيم شارداً تماماً، لم يصغِ لوالده الذي تخيل نفسه بمظهر الحكيم. انتبه لشروده بعدما فرغَ من كلامه «بماذا تفكر؟». يريد العودة للبيت بأسرع وقت فأجاب بحدق «أفكر لأي الأماكن أذهب غداً للبحث عن عمل». انفرجت أسارير الوالد «لا عليك، سنبحث هذا الأمر في البيت». الصمت الذي تلا ذلك لم يَرُق له، أحَسَّهُ يوَبِّخُهُ توبيخاً شديداً

فقام بكسر حدته الجاثمة فوق صدره «هيا يا نعيم، سنعود للبيت. ألن تُكمل كأس الذرة؟». أشارَ بسبابته اليمنى نحو فتى، يمشي رفقة والَده، مزهواً بحقيبته المدرسية الجديدة «أعْطِها لذاك».

❖❖❖❖❖

على عكس مزاج نعيم، كانت سماء اليوم التالي صافيةً تماماً. تَفَرَّسَها طويلاً حتى شَعَرَ بصفائها يتسلل لمسامات جلده ببطء و هدوء. أحس بكل قطعة من جسده تنمو فيها حياة جديدة. أغمض عينيه مُتَخَيِّلاً نفسه طافياً في الهواء. بعدها، ضَحِكَ متصالحاً مع رغبة والده، و مُتَحَمِّساً لعيش التجربة الجديدة. وَقف على مفترق ثلاثة طرق محتاراً أيُّها يسلك. قَرَّرَ اتخاذ الطريق الذي ستسلكه أول سيارة بيضاء تعبر الطريق الذي اجتازه. بعد ارتيابه بانقراض السيارات البيضاء ، رأى واحدةً قادمةً من بعيد. سُرَّ لرؤيتها سروراً سريعاً ما داخَلَهُ التشاؤم بعدما رآها تتخذ الطريق الأيسر، على اعتبار أن اليسار و اللون الأبيض لا يلتقيان. كاد يتراجع عن قراره معتبراً إيَّاه فكرة عابرة، لكنه خَشيَ المشي في الطرق المليئة بالعقبات إن كذب مع نفسه منذ البداية، فاتجه يساراً. هَالَهُ كثرة المتاجر المنتشرة على امتداد بصره. تَيَقَّنَ أنه لن يجهد في إيجاد عمل. راقتهُ واجهة متجر لبيع العطور، فالتَمَسَ العملَ من التاجر. سأله إن كان يملك خبرة بالعطور. أجابه بالنفي. سأله أين عمل من قبل. أجابه بتركه للمدرسة حديثاً. رفع حاجبيه مستاءاً مما سمعه ناصحاً نعيم بالعودة للمدرسة. لم يُعَلِّق بشيء، لكنه سرعان ما غادر تاركاً التاجر يستوضح نفسه إن قال شيئاً خاطئاً. اتجه لمعمل إنتاج ملابس مهنية. تصور نفسه جالس خلف آلة خياطة قبل دخوله. موظفة الاستعلام سرعان ما خيبت آماله باستحالة عمله هنا، نظراً لعدم بلوغه سن العمل القانوني. ذهب لمحل تصليح سيارات. وافق الميكانيكي على توظيفه، لكن نعيم لم يوافق بعدما سمع بالأجر المتدني جداً الذي سيتقاضاه. و حين استفسر

نعيم عن السبب، أخبره الميكانيكي بأنه سيقوم بتعليمه حرْفَة، و بالتالي فإنَّ نعيم لن يقدم خدمات بقدر ما سيحصل علىَ خبرة و معلومات. لم تُقْنعُهُ الحُجَّة، و رأى في الأمر إستغلالاً كبيراً يصل لدرجة العبودية. تَعَمَّدَ الابتعاد عن محال الدواجن لتَقَزُزِه الكبير من الدجاج و فضلاته. أما البقالات و أسواق المواد التموينيَة عُذرُها السن الصغير، و إمكانية عودته للمدرسة في أي وقت. في متجر لبيع الملابس وجد أربعة رجال متحلقين حول طاولة، أحدهم يكتب شيئاً ما على ورقة فيما يحاول البقية ثنيه عن ذلك. تبين له أن الذي يكتب هو أحد موظفي وزارة العمل يقوم بتحرير مخالفة بحق المتجر لتوظيفه عامل لم يبلغ سن العمل القانوني. خرج من المتجر دون السؤال عن امكانية العمل. لم يضع في حسبانه مسألة سن العمل هذه، كما استغرب عدم إتيان والده على ذكرها بتاتاً. قَدَّرَ أن عيناه أجْلَت بركة المتاجر، فبعدما استعظم غزارتها أول الأمر هاهو يراها قليلة لا تَثُثُ سوى الشُحّ. صغر السن، إمكانية العودة للمدرسة، عدم امتلاك خبرة أو مهارة تؤهله للعمل، هي العلَل التي حالت دون عمله حتى الآن. بَقيَ متجر واحد فقط، أطَال النظر فيه، أنت الأمل المتبقي،لا تردنَي خائباً أرجوك. هَمَّ بفتح الباب لولا أن رأى ستائر من قماش أزرق مسدلة على بُعد متر من الباب تحجب النظر. ألا يرى من في الخارج ما يجري بالداَخل بدت الحاجة المنطقية لوجودها، مما أرجعه خطوتين للخلف بنية فقْه طبيعة عمل المتجر بقراءة يافطته. فغر فاه و ارتفع حاجباه. لَم يَدري إن قهقه من طبيعة الموقف أم سخرية و استهزاءاً بنفسه. آخر متجر، و الذي وصفه بالأمل الأخير، ما هو إلا صالون سيدات.

عاد إلى رزانته بوضع يديه على خصره و عَضِّ شفته السفلى مع هز رأسه يمنة و يسرة في إشارة لعدم تصديق ما حصل. وعلى ذات الوضعية أعاد النظر في المتاجر الوافرة و سيول الناس الغفيرة «تباً لك من سيارة. يجب طلاؤك باللون الأسود. منذ متى يتلاقى اليسار و اللون الأبيض!. تشاؤمي كان على حق. وَجَبَ ألا اتخذ هذا الاتجاه. آه. لقد اتخذت الاتجاه الخاطئ». الظلام يُكَحِّلُ عينيه شيئاً فشيئاً. و الدمع يداعب مقلتيه. حاجته ماسة للبقاء وحيداً. استدار خلف الصالون ليختلي بنفسه بعضاً من الوقت. بهجة الأرض التي أبصرها اجتثت شعور الوحدة من داخله. لم يتوقع، هنا، رؤية أرض رفضت يد الإنسان العبث بها. كانت أرض زراعية صغيرة تحوي عدداً من أشجار الزيتون، ينتصفها طريق ترابي لا يكاد عرضه يتسع لسيارة واحدة، يحفه، من كلا الجانبين، حجارة سوداء ملساء متوسطة الحجم تستر قواعد أشجار تكاد أغصانها تتشابك ببعضها غير مبيحة لأشعة الشمس باحتلال سوى خط رفيع جداً يقسم الطريق لجانبي مغادرة و عودة، و في كلا الجانبين فإنك لا تعرف إن كنت مغادر أم عائد. قدر طول الطريق بثلاثمئة متر، ثم استشف نهايته. غَمَّهُ أن الطريق الترابي لا امتداد له،إذ يندثر إثر ارتطامه بشارع مُعَبَّد يفضي يميناً و يساراً مع استحالة المضي قُدماً لوجود منزل. ركز نظره في المنزل الذي توهمه كصخرة عظيمة أغلقت الطريق نحو العلا. طابقين من الحجارة البيضاء. لم يعط اهتمام للطابق الثاني لجلاء أنه سكن بشري. المستودعات الثلاثة التي تحتل الطابق الأول شغلت باله. فمن اليمين لليسار، لاحظ نعيم أن المستودعان الأولان مغلقان. بينما الثالث صُيِّرَ بقالة

ظهرت كمنفية من السوق. عجز القيظ الخانق عن إفساد تطلعه لمشي الطريق الترابي و كشف حجاب البقالة كأنه مرسل لاستكشاف عوالم جديدة. سار متلذذاً بنسمات الهواء اللطيفة تمازح قطرات العرق على جبينه. اتسع صدره كبالون ينفخه الهواء حين نَشقَ نكهة العشب و الحشائش. تساءل عن كمية المشاعر الخلابة الَتي محقتها رفاهية المدن الصناعية. و سرعان ما تحولت مشاعره الخلابة إلى لهاث و ثقَلٍ في رجليه لحظة عبوره قمة الطريق الترابي المليء بالفجوات و الحجارة الناتئة، و الذي يبدو إنحداره، عند النظر إليه، أقل شدة بكثير مما يتضح بعد اجتيازه.

❖❖❖❖❖

البقالة متواضعة. من يدخلها يخيل إليه أنها تحوي جميع الأصناف. ثلاجتان، واحدة للعصائر و أخرى للألبان، تشمخان أمام الجدار المقابل للباب. فيما تم تثبيت أرفف حديد، بالجدارين المتبقيين، وُضعَت عليها المواد التموينية و المنظفات و قليل من أدوات التجميلَ. كما عرضت ألعاب أطفال في الهواء، تمسكها حبال هزيلة، تم ربطها بين رؤوس أرجل الأرفف الحديدية. وجد البائع على يساره مباشرة قابع على كرسي بلاستيكي خلف طاولة يبدو أنها أُقيلت من مؤسسة حكومية سامية. ألقى عليه التحية فرَدَّها البائع دون رفع رأسه عن هاتفه الغارق بالعبث به. سار نحو ثلاجة العصائر يُطالع محتويات البقالة بعينيه اللتين بدأ يتسلل إليهما النعاس. أنعشه صقيع هواء الثلاجة، مما زاد حدة عطشه، فتناول زجاجة عصير برتقال و شربها على ثلاث جرعات. أمسك واحدة أخرى و أبقاها مغلقة في يده. آبَ نحو البائع سائلاً نفسه أيسأله عن امكانية العمل أم لا. لامبالاته بوجوده لم تشجعه على طرح السؤال. اكتفى بإعطائه النقود، فرفع البائع عينيه عن الهاتف ليرى ما أخذ نعيم الذي قام برفع الزجاجتين عالياً في الهواء يُريه كل ما أخذ. خرج من البقالة لاعناً في سره سماجة البائع. على الشارع المعبد استدار لإلقاء نظرة أخيرة على البقالة. رأى بطرف عينه ورقة بيضاء ملصقة على الباب لم ينتبه لها أول مرة. جَنَحَت عيناه نحوها لإرادياً بقصد قراءتها، مطلوب موظف. فتح زجاجة العصير مباشرة و شربها على جرعتين، ثم طفق عائداً للبقالة. «هل تريد موظف؟» خمن أنها الطريقة المثلى لسحبه من براثن هاتفه. وضع البائع هاتفه جانباً و أومأ برأسه بالإيجاب. «أود

العمل علماً أنني لم أبلغ سن العمل القانوني، و لم أعمل من قبل في أي مجال مما يعني عدم امتلاكي خبرة، و قد تركت المدرسة حديثاً مع تأكيدي على استحالة عودتي» نعيم نفسه تعجب طريقة كلامه. ابتسامة صغيرة ارتسمت على وجه البائع «يبدو أنك بحثت عن عمل في السوق؟». أومأ بالإيجاب. بمنتهى الحماس هَبَّ واقفاً «بقالتي صغيرة متواضعة، و يمكنك القول حقيرة. لذلك رفضها السوق، فقررت الانتقام على طريقتي بتوظيف من أريد و حتى لو لم يبلغ سن العمل القانوني، أو لا خبرة لديه، أو ترك المدرسة حديثاً و قد يعود إليها بعد ...» تظاهر بالنظر في ساعته « ...ربع ساعة من الآن. و الأجمل من كل هذا أنَّ كل المؤهلات اجتمعت فيك». تبادلا الضحك محتاراً في طبيعة هذا الرجل الذي يتحول من قمة السماجة إلى قمة الفكاهة في أجزاء من الثانية. «لم أتوقع أبداً موافقتك بهذا الشكل السريع» قال نعيم ممتناً. «لا عليك، الحياة بسيطة جداً، نحن فقط من نُعَقِّدُها» قال البائع قبل ان يضيف «إن رغبت بالعمل، فكما ترى مساحة بقالتي أصغر من حجم مدخل أصغر مول بالعالم. المنطقة هادئة و الزبائن طيبين، و نادراً ما يتواجد أكثر من أربع أشخاص في آنٍ واحد. عليك فقط أن تكون دقيقاً في حساباتك، و تنتبه للأوراق النقدية لأنها في بعض الأحيان تكون مزورة. صندوق النقود يُقَسَّم لثلاثة أقسام، الأول لعوائد الدخان، الثاني لعوائد البطاقات الهاتفية، أما الثالث لما تَبَقَّى من السلع. التعامل مع المندوبين سهل جداً، و الأسهل مَنه تكوين صداقات معهم. في حال قبلت العمل، فإنك ستأتي عند العاشرة صباحاً و تغادر قبل التاسعة مساءاً. سأعطيك شهرياً مئتا

ورقة نقدية إضافة لثلاث وجبات يومياً. و إن لم ترغب بالعودة للبيت في أحد الأيام، فإنَّ في بيتي غرفة إضافية يمكنك المكوث فيها ...» سكت البائع قليلاً ثم سأل نعيم « ...هل بقي شيء؟». أعاد ضاحكاً «هل بقي شيء! إنك حتى ذكرت أموراً لم تكن في ذهني». داعبت كلماته غروره «دائماً ما أهتم بأدق التفاصيل» أضاف بعدها سريعاً «صحيح، نسيت سؤالك عن اسمك؟». بعد إخباره بإسمه لم يترك له مجالاً ليسأله ذات السؤال «إسم جميل. يمكنك مناداتي بأبي طارق». سارا بعدها خارج البقالة فيما البائع يسأله إن كان سيأتي غداً، فيومئ برأسه مؤكداً. يتجه للطريق الترابي ناوياً العودة للبيت. قبل وطء قدمه اليسرى لأول حبة تراب، يسمع نداء البائع له. يلتفت نحوه «ما الأمر؟». «عندي فضول لمعرفة مكان سكنك». «مقابل دار الأيتام». قطب حاجبيه معيداً كلامه باستغراب «مقابل دار الأيتام! و لماذا إذاً تتجه نحو السوق؟». «للعودة إلى بيتي». «أتمازحني؟» سأل باستغراب أكبر. «لا» أجاب نعيم قبل سؤاله مستغرباً بدوره «ما بك؟». «لم لا تذهب يميناً مباشرة اختصاراً للمسافة؟». «لم أفهم». «تعال» أمسك البائع بيده و مشيا حتى وقفا في منتصف الشارع. سأل البائع مشيراً بسبابته اليمنى نحو نقطة بعيدة «أليست تلك راية دار الأيتام؟». أغلق عينيه بعض الشيء ليرى بشكل أوضح، ثم هتف بقمة الدهشة «بالفعل... إنها هي». ابتسم البائع بخبث «طريق السوق أطول من هذا الطريق بثلاثة أضعاف على الأقل» ثم أضاف بنبرة توحي بتقديمه خدمة عظيمة لنعيم تلزمه بالعمل شهراً بلا راتب «يالشقائك لولا أن رأيتك متخذاً الطريق الأطول». يرد عليه نعيم فيما ينقل نظراته

ما بين الطريق الترابي و الطريق الذي دَلَّهُ عليه البائع «الغرب كان وجهتي الدائمة. إنها أول مرة اتجه شرقاً».

❖❖❖❖❖

أحسَّ فعلاً بفرق المسافة بعد اتخاذه الطريق الذي دلَّه عليه البائع. لم ينتبه إياد لعودته لانشغاله باللعب مع أولاد الحي، مُعطينَ درساً للكبار بكيفية تجاهل قيظ الشمس. في البيت وجد أمه نائمة. أما أباه كان يشاهد التلفاز. و ما أن رآه حتى هَبَّ واقفاً يسأله عن ملخص سعيه. أخبره باختصار و بُرود عن مجريات يومه. أبدى السيد إبراهيم امتعاضه من قيمة الراتب القليلة. عارضته زوجته «إنَّهُ مبلغ جيد، سيتكفل بالتزاماتنا و يكفينا الدَّين». «أرى أنَّك لست نائمة» قال بتهكم. «أيقظني صرير الباب» أجابت متحاشية النظرَ فيه. «كم هو غريب نومك هذا ...» تظاهر بالتعجب « ...و الأغرب منه اصطناعك النوم، لئلا تعدي لي فنجان قهوة، أليس كذلك؟» نبرته تزداد حدة وغضب. استشعر نعيم نشوب شجارٍ قريبٍ مصدره قبضة والده اليسرى، فقام يُهَدِّئهُ واضعاً كفه الأيمن فوق قبضته اليسرى، و كفه الأيسر فوق كتفه الأيمن «أرجوك يا أبي، الأمر لا يستحق كل هذا، أنا سأعد لك كأس قهوة و ليس فقط فنجان». أزاح سهام نظراته عن زوجته مُوَجِّهاً كلامه نحو نعيم كأنما يَعظُهُ و يشفي غليله من زوجته في آنٍ واحد «النساء أخبث مخلوقات اَللّٰه. مهما تقدم لهن من خدمات فَلا يَقْنَعْنَ، بل على العكس، يُظْهِرنَ أنها خدمات ناقصة لم تصل درجة الكمال. و إن أخطأت بحقهن، تُفتح أبواب جهنم السبعة في وجهك، تحتار من أيها سيأتيك العذاب. صدقني يا بني، لو أدْرَكْنَ النساء حقيقتهن، لسَبَقْنَ وليام جيمس و جون دِيُوي بتأسيس المدرسة البراغماتية بقرون. لكنهن كما الدواب يَعشْنَ فقط لإرضاء غرائزهن الحيوانية. ماديَّات حتى النخاع. يَسْمَعْنَ بكلمتي الروح و السُمُوّ، و يَسْتَثْقِلْنَ تكبد عناء سَبْرَ

أغوارهن. مصلحتهن فوق كل شيء، و لو على حسابي و حسابك. إن كانت حياتهن سعيدة، يَرَيْنَ الحياة مثالية. أما إذا كانت تعيسة، يَرَيْنَهَا في قمة الرداءة، و لا تستحق أن تُعاش، و يَلْعَنَّ كل ما عليها. يَبعْنَ...». «أبي، يكفي» قاطع والده مشيراً بعينيه نحو أمه.

رأى أعتى صدمات التاريخ متداخلة في عينيها اللتين استحالتا غمامتين سخيتين بالمطر. تمنى لو لم ينظر لها. قام ليغادر البيت و شعورٌ عارمٌ بالذنب يعتريه مصحوب بألم يعتصر قلبه. ما أن تأكد نعيم من خروج والده حتى كَلَّمَ والدته «بعد كل هذه الشجارات و الخلافات، أتمنى فهم كيف تعود المودة بينكما و تنامان على ذات السرير».

❖❖❖❖❖

لم تكن قد بلغت العاشرة حين دخل البقالة. وجد البائع يحاور زبون حول ارتفاع سعر الملح. «أهلاً يا نعيم» قال حين رآه قبل توجيه حديثه للزبون «أستاذ مالك، هذا نعيم، سيعمل هنا منذ اليوم». قال الزبون بحياء «عفواً، ألا يبدو صغيراً على العمل؟». «لكل ظروفه الخاصة» رَدَّ نعيم مسرعاً مانعاً تَشَعُّب الموضوع. غادر الزبون محرجاً بعض الشيء فيما ابتسم البائع معقباً «أحسنت الرد» قبل إضافته مقهقهاً «يبدو أنه لن يدخل البقالة ما دمت فيها». بالأمس أعد لائحة بالأسعار أعطاها لنعيم. بدأ يقرأ اسم الصنف و سعره ثم يشير باتجاهه ليَتَسَنَّى لنعيم معرفة مكانه. شرح له كيفية تنسيق السلع، حيث يكون القديم في الأمام و الجديد في الخلف تفادياً لانتهاء الصلاحية. اطْلَعَهُ على أرقام هواتف المندوبين مبيناً مجال كل منهم. آراهُ صندوق النقود مُعيداً أنَّ مردودات الدخان و البطاقات الخلوية و ما تبقى من السلع لا تختلط ببعضها. و بين الحين و الآخر يسأله فجأة عن سعر إحدى السلع، ليرى من جهة مدى نباهته، و لينقش السعر في ذاكرته من جهة أخرى. بقي البائع ملازماً لنعيم أغلب أوقات اليوم الأول، و قد أعجبه تعامله مع الزبائن، و سرعته في الحسابات، حتى أنه في لحظة من اللحظات لم يُطقْ فكرة أنَّ فتى بذكاء نعيم يترك المدرسة. و بالنسبة لنعيم فقد وَجد الأمر مسلياً و ممتعاً. استطاع التأقلم سريعاً مع البيئة الجديدة و كأنَّهُ وجد فيها ملاذاً من بيئته القديمة. كانت ثقته تزداد بنفسه كلما سبق البائع في حساب قيمة مشتريات أحد الزبائن، إذ يكون على وشك النطق بالسعر، فيجد نعيم يسبقه قائلاً للزبون السعر كذا، و هو ما كان يثير حفيظة البائع نوعاً ما، مما جعله يُسَرِّعُ وتيرة حساباته الذهنية ليسبق بنطق السعر، و هو ما كان له فعلاً، إذ أصبح يلقي نظرة خاطفة على المشتريات و ينطق السعر

بطريقة يبدو معها خائف من فرار الكلمات منه، لكن نعيم ينظر نحوه مقطباً حاجبيه يُعْلِمُهُ بوجود زيادة أو نقصان في الحساب، يطلق البائع ضحكة مجلَجلة موجهاً كلامه تجاه الزبون قاصداً نعيم «أول يوم له و يخطئ في الحساب. على هذه الحال سأغلق البقالة بعد شهر». يمشي واثق الخطوة و بسمة غير راضية تعلو وجهه، ثم يبدأ بعرض السلع واحدة واحدة أمام نعيم كمعلم حساب «هذا السائل سعره كذا، الشوكولاته سعرها كذا فيصبح الناتج كذا، ثم نضيف سعر علبة السجائر هذه فيصبح الناتج كذا...». نظرات الإستياء التي تبادلها نعيم و الزبون، بسبب سلوك البائع، سرعان ما تحولت لضحكات صامتة إثر إمتقاع وجه البائع بعد إنتهائه من الحساب. أعاد العملية مرة أخرى دون أن يجرؤ على إزاحة عينيه عن المشتريات. لم يَعُد الزبون قادراً على لجم ضحكته، فأطلقها بدهاء واضعاً يده على كتف البائع «أبو طارق، إنك لن تأخذ زمانك و زمان غيرك». وجد في مواساته مخرجاً مناسباً لحفظ ماء وجهه، فرَدَّ عليه بضحكة زائفة «يبدو أنني أشيخ في ذروة عطائي» ثم وجَّه كلامه لنعيم معترفاً ضمنياً بهزيمته «يبدو أن وجودي من عدمه أصبح سَيَان، منذ الآن يمكنك العمل وحدك». يجيب نعيم و كأنَّه يؤنب البائع على قوله «على العكس، إنني أسعى لتعلم المزيد منك». يكتفي بالإيماء برأسه قبل مغادرته صاعداً نحو بيته. و ما هي إلا لحظات حتى سمع نعيم صوت شجار في الأعلى، الأمر الذي جعله يدرك، للمرة الأولى في حياته، بواعث الشجارات الكثيرة التي كان والده يَفْتَعِلُها مع والدته ساعة عودته من العمل.

❖❖❖❖❖

لم تنضب توجيهات و نصائح البائع، طيلة أيام الأسبوع الأول، مرتكزةً على أطراف ثلاثة يمثلها المندوبين، البقالة، و الزبائن. رأى نعيم إجحافاً كبيراً في تعليماته حول التعامل مع المندوبين، إذ أوصاه بدايةً بالتأكد من سلامة الصناديق و محتواها و التثبت من تاريخ الصلاحية. كما مَنَعَهُ من إدخال البضاعة الجديدة للبقالة قبل مغادرة المندوب، متذرعاً بإمكانية إختلاطها بالبضاعة القديمة و إدخالهم في مشاكل هم بغنى عنها. شَدَّدَ عليه بالمقارنة الدقيقة بين الأصناف المكتوبة في الفاتورة و البضاعة التي تم إنزالها. و فوق كل ذلك فإنَّ أي شيء يأخذه المندوب، حتى لو كان حبة علكة ثمنها قطعة حديدية واحدة، عليه دفع ثمنه. ثم بعد ذلك، بإمكان نعيم إعطاء ثمن البضاعة للمندوب الذي سيتمنى الموت قبل العودة مرة أخرى لتلك البقالة. «تكرَهُهُم؟» سأله نعيم بطريقة ظاهرها المزاح و باطنها منتهى الجدية. «ليس للأمر علاقة بالعواطف، إنهم كجامعي الضرائب، يريدون فقط أخذ نقودك و المغادرة سريعاً لامبالين بجودة الخدمات المقدمة لك و مدى رضاك عنها». «أستغرب كلامك في لقائنا الأول عن سهولة التعامل مع المندوبين و تكوين صداقات معهم!». «و أنا عند قولي، لكن فقط عند معاملتهم بهذه الطريقة. جلافتك ستفرض عليهم احترامك رغماً عنهم، الطيبة لا تصلح لهؤلاء. عندما تعامله في المرة الأولى كما أخبرتك فإنَّه في المرة الثانية سيمشي من تلقاء نفسه حسب تعليماتك. سيثبت لك أن الصناديق سليمة و لا نقص فيها، و ستنتهي صلاحيتها بعد سنة على أقل تقدير. سيقف، دون أمره بذلك، بجانبك و يقوم بمقارنة البضاعة المُنْزَلَة مع البضاعة المكتوبة على

الفاتورة. و قبل أن يجرؤ على أخذ أي شيء سيكون دفع ثمنه. و هكذا فقط يا بني سيسعون هم ليكونوا أصدقائك». سأله بخجل «عفواً، لماذا كل هذا التعقيد؟». أجاب فيما يتأمل الطريق الرملي «لأن أولئك المتعجرفين ما هم إلا بارود بنادق الرأسمالية». «لم أفهم» قال نعيم بدافع كبير لحب المعرفة. «ستفهم يا نعيم...» قال البائع قبل إضافته بعد لحظة صمت مليئة بالمعاني «ستفهم حين لا يعود للفهم فائدة». و على عكس ملاحظاته عن المندوبين، فإنَّ تعليمات البائع حول البقالة لم تداعب حفيظة نعيم. شَبَّهَهُ بوالدته و هو يأمره بكنس الأرض بلطف حتى لا ينتشر الغبار في الهواء. «الثلاجتان لا تعملان سوياً أبداً. كل واحدة تعمل ساعة و ترتاح ساعة، شَرْطَ أن تكون ساعة عمل الأولى هي ساعة راحة الثانية» هكذا بَيَّنَ له آلية عَمَلِهما دون اهتمامه بتوضيح مبررات اتِّباعها قَدْرَ اهتمامه بتحذير نَعِيم من إطفاء كلتا الثلاجتين بذات الوقت. فصوت الثلاجة، بحسب البائع، هو روح البقالة. و متى ما انقطع ذلك الصوت يصبح من العار وصف المكان على أنَّه بقالة. و كان البائع قد اطلع نعيم على مكان ملطفات الجو بجانب صندوق النقود. و لم يلزمه بوقت محدد لتلطيف الجو تاركاً الأمر مقياساً للباقته. كما ترك له أيضاً أمر تنسيق البضاعة قائلاً «تنسيق البضاعة ما هو إلا إنعكاس لفلسفتك الخاصة، إن كنت ترى للحياة جمالية و معنى فستظهر البقالة جميلة و مريحة تزيد النزعة الإستهلاكية لدى الزبون. أما إن كنت غارقاً بالسؤال عن معنى الحياة و لا ترى نفسك سوى ذرة غبار في إعصار الإنسانية فإنَّ مظهر البقالة سيكون كريه، موحش، تُنَفِّرُ الزبون قبل دخوله

حتى». «على طلاب هندسة الديكور العمل عندك مدة سنة على الأقل» عَلَّقَ ضاحكاً حول فلسفة البائع. «فلسفتي في العناية بالبقالة تُعَوِّضُ عجزي عن التعامل مع الزبائن. لدي القدرة على إخبارك بالعديد من مهارات التواصل مع الناس. بل إنَّ أغلب الكتب التي أقرأها موضوعها التنمية البشرية، و كيف تكون شخصية إيجابية تجذب كل من حولك. و مع هذا...» يقول على مضض كأنَّهُ مُكْرَهٌ على الإعتراف « ...لا أستطيع التصرف بإيجابية. حينما تأتي لحظة واقعية تمتحن مطالعاتي النظرية أفشل بجدارة. أنسى كل شيء و تَتَلَبَّسُني طبيعتي الجلفاء. لذلك عقدت صفقة مع البقالة، أنا أعتني بها، و هي تعتني بزبائني». «لكنك كنت بغاية المرح عندما سألتك عن العمل» يقول نعيم. «أود منك فقط تتذكري قبل طرحك للسؤال» هنا ابتسم نعيم رغماً عنه «قبل سؤالك كُنْتَ زبون. لكنك خرجت من دائرة الزبائن بعد السؤال. و لَعَلَّ طبيعة سؤالك أحالتك دوني، الأمر الذي أحيا حيويتي». «دوني!» أعاد نعيم مقطباً حاجبيه. «أعتذر، بالغتُ في الصراحة لدرجة الوقاحة». «إنني حتى لم أفهم معنى الكلمة» تدارك نعيم. «ليس مهم. المهم أن نجعل البقالة جزءاً من حياة الزبائن. ألا يغدو للسجائر أريج ما لم تُشترى من هنا . أن نجعل المرأة، القابضة على النقود، تنافس حاتم الطائي في كرمه دون ندمها على ما صرفته. هذا ما عجزت عن الوصول إليه، و الآن أنقل شرف المحاولة إليك». كلامه عن الزبائن كان أول شيء قاله لم يُلْقِ له نعيم بالاً، لقد اعتبره مونولوج يدعو فيه البائع تكفير خطاياه الكثيرة. و للحق فإنَّ نعيم لم يكن بحاجة لتعليمات حول التعامل مع الزبائن. و قد أدرك البائع هذا منذ اللحظة التي

أحرج فيها الأستاذ مالك حينما تَعَجَّبَ صغر سنه على العمل. أبصر حينها مهارة نعيم في إعطاء كل شخص القيمة التي تليق به. و مع انقضاء الأسبوع الأول ثَبُتَ للبائع صحة نظريته، إذ شعر هو ذاته بالغيرة من كاريزما ذاك الفتى الذي يصغره على أقل تقدير بخمس و عشرين عام. لكن الأمر لم يكن يخلو من بعض الزبائن النزقين الذين لم يروا في البقالة إلا تحدياً لإثبات الذات، فكان منهم من يدخل البقالة ليسأل تقريباً عن سعر جميع الأصناف و يقوم بمقارنة الأسعار مع أسعار السوق على أساس أن أسعار الأخير أقل بكثير. و آخرين يدخلون لا يتكلمون إلا بعد رؤية جميع الأصناف الموجودة ليقوموا بعدها بالسؤال عن صنف غير موجود. و أمثال هؤلاء نزاقتهم عابرة لا تترك أثراً في النفس، لا بل إنهم أحياناً يثيرون ضحك نعيم، فهم أولاً كبار في السن من المستحيل أن يُشَخْصنوا الأمور معه، و ثانياً كان أحياناً ينزل لمستوى نزاقتهم، فيقوم بالرد عليهم بطرق ساخرة، كأن يقول للنوع الأول أن كل البضائع التي في السوق ما هي إلا من مُخَلَّفات البقالة نَمُنُّ بها على تجار السوق الذين يقومون بخداع الناس فيطبعون تاريخ صلاحية مزيف. أما النوع الثاني فلا يقدر على كبت ضحكته قبل أن يعلق عليه «هل أنت هنا لتختبر قوة نظرك؟». أما وفا فقد تخطى ذانك النوعان مشكلاً نوعاً قائماً بذاته تعدى النزاقة نحو الرعونة و الهوج. كان في نفس عمر نعيم، إلا أنه أطول و بنيته الجسدية أقوى. في ظهيرة ثالث أيام عمل نعيم عندما كان الحي بأكمله خالياً، و ليس فقط البقالة، دخل وفا. ألقى نظرة عابرة نحو البائع ثم أعاد التحديق حينما لم يلاحظ أن البائع هو أبو

طارق. تعجب بدايةً «أين أبو طارق؟». «في بيته، لقد حللت مكانه». «الآن عرفت لماذا أزال الورقة» قال و كأنَّهُ حَلَّ لغزاً عظيماً مطيلاً النظر نحو الطريق الرملي. «هل ستشتري؟» أراد التخلص منه بأي طريقة بعد شعوره بدماثته. حَدَجَهُ بنظرة مليئة بالاستحقار و الاستخفاف غَصَبَت نعيم على معاينة جسده الضخم، و التدقيق في ذراعيه الشبيهان بجذعي شجرة معمرة، ثم خطف نظرة نحو وجهه سرعان ما أشاحَهَا بعد رؤيته الشر بين ملامحه و كأنَّ الشيطان مستقر بين ثنايا ذاك الوجه القبيح. لم يفطن نعيم أنَّ الهلع كان يتسرب إلى داخله خلال إجلاله لذلك الجسد الإسبارطي. فقط عندما أشاح بنظراته عن وفا داهمته نوبة خوف، لم يشعر بمثلها من قبل، أحَسَّ معها بأنَّ قلبه استحال آلة شفط تسحب كُلُّ ما فيه من طاقة لتُكَدِّسَها فيها، فلا جسده استطاع تَحَمُّل ذاك الوهن المفاجئ، و لا قلبه قَدرَ على إحتواء تلك الطاقة الهائلة، الأمر الذي جعله يرتمي على الكرسي مُسنداً مرفقيه على الطاولة و حاشراً رأسه بين يديه مما جعل بعضاً من الطمأنينة تؤنسُهُ. أما وفا فلم يعلم بأنَّه قد زرع كل ذلك الرعب في قلب نعيم، فَقد ظَنَّهُ يحب الجلوس بتلك الوضعية. أخذ وفا زجاجة عصير و علبة ذرة، ثم توجه نحو نعيم قائلاً له بنبرة آمرة «أعطني سيجارتين». رفع رأسه دون النظر في وجهه مُخرجاً سيجارتين مَدَّ بهما لوفا الذي قام برمي القطع النقدية في الهواء ملقياً بها نحو نعيم و كأنَّه يتصدق عليه ليقول قبل خروجه «ظننت أن أبا طارق سيأتينا برجل، فإذا به يُوَظِّف ولد». مشى خارجاً بطريقة غريبة فارداً ذراعيه و مباعداً ما بين ساقيه. لم يسمح له قلبه بفعل أو قول أي

شيء. المرة الأولى التي يشعر فيها بهذا الشيء، و لولا جلوسه على الكرسي و إسناد رأسه على يديه المسندتين على الطاولة لسقط أرضاً. بعد غياب وفا عن ناظريه، شعر بالإمتنان لعدم وجود شهود على ما حدث. أخذ بعدها يلوم نفسه شاعراً بعارٍ مُذلٍ إلى درجة انطلق معها يَسُبُ نفسه بألفاظ فاحشة. ثم راح يتخيل أنَّهُ يضرب وفا عَبْرَ إلقائه أرضاً و الدعس على وجهه بحذائه المليء ببراز حصان كان وفا يمتطيه قبل أن يُرديه عنه. مع أُزوف العصر، و عودة الحياة للبقالة، حاول نعيم نسيان ما حدث باللهو مع الزبائن مُبَرِّراً لنفسه أنَّ مقولة كما تدين تُدان وجدت تطبيقها إليه، فأرسلت وفا ليُذلَّهُ بذلك الشكل إنتقاماً للفتية الضعفاء الذين كان يَتَنَمَّرُ عليهم في المدرسة. و مع هذا لم تجري الأمور كما تَمَنَّاها نعيم، ففي اليوم التالي عاد وفا بذات الموعد. دخل كأنَّ لا أحد في البقالة. و راح يدقق النظر في السلع كمن يعاين قطعاً أثريةً. ثم أشعل سيجارة و تناول حبة بسكويت راح يأكلها و هو جالس على حافة الطاولة، مقابل نعيم، يتأمل الطريق، كما لو أنَّهُ يفكر في الإقدام على أمرٍ خطيرٍ، لامبالياً أبداً بوجود نعيم الذي كان يسرق نظرات سريعة نحوه خوفاً من إصطياده لإحداها. و لم يغادر إلا بعد رؤيته لسيارة أحد المندوبين اصطفت أمام البقالة، فقام بإلقاء قطعة نقدية حديدية خارجاً من البقالة دون إلقاء نظرة، و لو كانت عابرة، على نعيم. و حال عودته بنفس الموعد في اليوم التالي، ألفى طارق مع نعيم في البقالة. خَمَّنَ أنَّ نعيم استدعى طارق مُتَعَمِّداً فأجرى محادثة وِدِّيَّة مع الثاني بُغْيَةَ تعريف الأول أنَّهم أصدقاء. و سرعان ما غادر، بعد شرائه كيس طحين، مُوَجِّهاً

نظرة حقْد لنعيم و مبتسماً إبتسامةً خبيثةً تشاركُهُ الإحتفال بنجاته هذه المَرة. نسائم غريبة غازلت وجه نعيم قبل دخوله البقالة صبيحة اليوم التالي. ما كاد يراه أبو طارق حتى أخبره بأنَّ مندوب الألبان سيأتي وقت الظهيرة، و أنَّهُ يتحتم عليه النزول ليصفي معه بعض الحسابات. أومئ نعيم مبتسماً مُسرَّاً في نفسه أمراً، و متفائلاً ببزوغ نهاية جبروت وفا الذي لم يكنَ يخون مواعيده، فجاء بوقته المعتاد يمشي بخيلائه. خَشيَ نعيم الاصطدام به دون نزول أبو طارق فيصبح كيس ملاكمة أمام قبضاته الحديدية. استجمع قواه في النهاية، و انتفض عن الكرسي منتصباً على قدميه قائلاً لنفسه فليكن ما يكن. «هذا ليس مكان للتنزه. خذ ما تريد و ادفع ثمنه ثم غادر» قال نعيم بنبرة مُتَحَدِّيَة. أطلق وفا تصفيرة إعجاب هازئة مصفقاً ثلاث صفقات بكَفَّيْه الخشنتين «أخيراً سمعت صوتك الجميل. يبدو أنك تناولت حبة الشَجاعة هذا الصباح». قال نعيم و هو في مكانه خلف الطاولة «لَمَا أتيت إلى هنا لو كنت طالباً المشاكل. اكفني شَرِّك». قام وفا بتجميع اللعاب في فمه، ليقوم بلفظه على مَهْلٍ، مُشَكِّلاً خيطاً طويلاً من البُصاق بقي مُتدلياً من فمه لبعض الوقت قبل تَشَكُّله على هيئة بقعة بين قدميه، ليَسْتَفزَّ نعيم بعدها «امسحها». كل الإهانة و الإذلال اللذين قَضَّا مَضجعَه من قبل، لم يعتبرهما شيئاً أمام هذا الفعل الذي لم يَعي كيفية وصفه. كل ما دار في خُلْده بتلك اللحظة هو عراك وفا. «هذا يكفي» قالَها فيما يتوجه نَحو وفا، و قد نسيَ أبا طارق برمته. تهيأ وفا في وضعية القتال خاصة بعدما رأى نعيم يأخذ بيده عصا مكنسة من بين المكانس الكثيرة الموجودة في زاوية البقالة. يَجْنَحُ بلا

أي شعور، لا خوف، لا غضب، لا شجاعة، فقط حاجة ملحة للضرب. وقفا على نقطة التصادم. أرجع نعيم يمناه التي تحمل العصا للخلف بنية ضرب وفا على رأسه. فيما رفع وفا يسراه لتَقيه ضربة العصا، و أَعَدَّ يمناه للَكْم وجه نعيم. و على هذه الوضعية بقيا مُتَصَنِّمَيْن إثْرَ صرخة مفاجئة «ما هذا؟». البَصْقَةُ فوق الأرض على حالها. سريعاً ما تحولت أنظار وفا نحوها كأنَّها الشاهد على جريمته. أشار إليها نعيم مخاطباً أبا طارق «فعلها ثم قال لي امسحها». و كقاضٍ شرس وجَّه سؤاله لوفا «أصحيحٌ هذا؟». ظَلَّ مطأطئاً رأسه يشعر بالذنب و موجهاً رسالة خفية بالإعتذار لنعيم يرجو منه فيها الشفاعة له عند أبو طارق. لم يفهم نعيم الرسالة، بل قام فوق ذلك بالتحدث عن جميع ما فعله وفا خلال الأيام الثلاثة الماضية. جحظت عيناه غير مصدق، و امتقع لون وجهه بالأحمر، فيما بانت أوداجه و هو يصرخ صرخةً أرعدت نعيم من مكانه «هل ما يقوله صحيح؟». صمته علامة إدانته. هدأ أبو طارق متجهاً للوقوف بموازاة باب البقالة قبل أن يقول بنبرة توحي بأنه مُجْبَرٌ على اتخاذ هذا القرار «يبدو أنه حان وقت عودة والدك لتربيطك». ما كاد ينهي كلماته حتى ركض نحوه محاولاً الانقضاض على يديه لتقبيلهن و هو يصرخ و يصيح باكياً «أرجوك يا أبا طارق، أقسم أني لن أكررها ...». فيما كان أبو طارق يحاول التملص منه بدفعه و إبعاده عنه و هو يردد «أنت عديم التربية. الضرب فقط ما يجدي معك». و يستمر وفا على حاله من البكاء و الصياح رجاءً في مرحمة أبي طارق دون ترك أي مساحة لنعيم للإقرار بما تُريه عيناه. وفا ينتحب و يَتَوَسَّل. أيُّ تعويذة في كلمات

أبي طارق مَسَخَتْهُ من ثورٍ هائجٍ إلى ذئب ذليل يُدَلِّي لسانه خلف صياد طمعاً في عظمة لا تسمن ولا تغني من جوع. و يستأنف نعيم مشاهدة مأساة وفا، الذي يَيْأَسُ من رَوْح أبي طارق، فيَهْرَعُ صَوْبَهُ يُمْسِكُهُ من رأسه منهالاً عليه بقُبُلات شَابَهَا الدموع «هأنَذا أعتذر منهَ. أرجوك سامحني يا نعيم. أقسم أني لن أضايقك مرة أخرى». يمينُ نعيم التي كادت قبل قليل أن تهوي بالعصا على رأس وفا، هي ذاتها الآن تُطَبْطِبُ على رأسه كأُمٍّ رؤوم «أرجوك ألا تؤذيه. لقد سامحته». يتجه أبو طارق نحوهما لحظةً سماعه كلام نعيم «أرأيت أنه أفضل منك؟» يقول لوفا. «لن أخبر أباك...» ظهرت معالم الارتياح على وجه وفا قبل أن يهوي أرضاً إثرَ ضربة طَبَعَتْها قبضتي أبي طارق على صدره تزامناً مع قوله « ...لكن إيَّاكَ محاولة افتعال المشاكل في بقالتي مرةً أخرى. هيا، غادر و لا تريني وجهك بقية هذا اليوم». قام وفا عن الأرض و غادر مسرعاً كمَنْ وجد مهرباً من الجحيم. «هؤلاء الزبائن هم الوحيدون الذين أتقن فنون التعامل معهم» قال لنعيم مبتسماً. «ما خَطَبُه؟» سأل مرتاباً. «هو أم أباه؟». بقي صامتاً يحدق فيه كأنه لم يعد يفهم أي شيء. ضحك أبو طارق «والده خشنٌ جداً في التعامل معه، أي شكوى تأتيه ضدَّهُ فإنَّهُ لا يبحث عن أسباب المشكلة ليرى إن كان الحق مع اَبنهَ أم عليه، لا بل إنَّهُ لا يسمع بقية القصة، يذهب مسرعاً لضرب وفا. و ضربَهُ ليس كأي ضرب. الكثيرون ممن حولهم يسمعون صرخاته و بكاؤهُ. سمعت أنه ذات يوم قام بتوثيقه داسَّاً في فمه جوارب نتنة. كما أخبروني ذات يوم أنَّهُ عَرَّاهُ بالكامل يريد إقحام عصا في شرجه. قبل شهر تقريباً، في نفس هذا الوقت، أتاني لاهثاً لا يرتدي سوى

ملابسه الداخلية. و ما هي إلا لحظات حتى رأيت والده يركض من بعيد و بيده سكين. هَدَّأتُ والده و أبقيت وفا في بيتي لثلاثة أيام. جاء بعدها والده يخبرني أنه بحاجة لمساعدة ابنه في دهان المطبخ. و وقفت على باب البقالة انظر إليهم مشدوهاً خلال محاورتهم حول العمل و كأنَّهُما طبيبان يتشاوران حول إجراء عملية ما. إنها عائلة غريبة. لطالما سعيت إلى حَلِّ عُقَدها لكني عجزت عن ذلك». «و ماذا عن والدته؟». «أمه لا تجرؤ على التدخل. هي ذكية، تعرف كيفية تفادي خطر زوجها. لكنها لا تستطيع تحويل غباء ابنها إلى ذكاء ليفهم كيفية تفادي خطر...» قطع صوت شاحنة المندوب حديث أبي طارق الذي سرعان ما اتجه نحوه لحاجة بدا أنَّها ضرورية تاركاً نعيم يُعاني مرارة معايشة إذلال السلطة، حتى و إن كانت تلك السلطة ممارسة عليه، و مشاهدة العَظَمة، و لو كانت لا تكون إلا بخنوعه، تَتَمَرَّغ بالهَوان. أجَلَّ نعيمٌ وفا، رأى في هَيْبَته أحد جبابرة الميثولوجيا الإغريقية خَدَعَ حتمية التاريخ فأصبحَ هنا. أبصر في هيئته المخلص المُنْتَظَر من قبَل الملحدين قبل المؤمنين. و تَوَسَّمَ شراسته طريقاً للإنسان الخارق حُلْمُ نيتشه. فلم يستطع تصور بطل إغريقي كادت عصا تُوَسِّعُ شرجه، و قد كان من قبل يَظُنُّهُم بلا شروج. كما عَجزَ عقله على تخيل المخلص المنتظر تفوح من فمه رائحة جوارب نتنة بدلاً من مسك الحكمة و الخلاص. و أيْأَسَ آماله أنَّ نيتشه أضاع حياته و فلسفته سعياً وراء إنسان يبكي و يصيح خلف يَد ليُقَبِّلُها و ما هو ببالغُها. تلك كانت بقايا وفا تنوح و تتحسر في أعماق نعيم حتى ذرَفَهَا دمعة دافئة ما كانَ ليشعر بها لولا مسحها بواسطة سَبَّابَةٌ صغيرةٌ ناعمةٌ طريةٌ تملكُها فتاة

تصغره بما يقارب خمس سنوات. يراها للمرة الأولى. احتاج لخفض رأسه قليلاً ليتلذذ بتأمل إرتجاف بؤبؤاها . لا كلام، فقط تحديق. و بكل هدوء عاد نحو كرسيه، و تَبِعَتْهُ الفتاة لأخذ السلعة التي كان وفا سيأخذها لولا ثورة نعيم. و فيما كانت تدفع ثمن ما أخذت، أمعن نعيم النظر في المندوب و استسلامه أمام أصابع أبو طارق المُهَدِّدَة، بينما اكتفت هي بإبقاء نظراتها هائمة صَوْبَ الأفق. لتغادر بعد ذلك، دون أن يَنْبَسا ببنت شفة و كأنَّ ما حدث مجرد لغزٌ في لوحة سريالية عجز نعيم عن فَكِّ سرِّه ليُضافُ بذلك سراً آخر إلى السر الذي حَيَّرَهُ، منذ أول يوم عملَ، و اَلمُتَمَثِّلُ بعلامات الدهشة و التعجب التي كانت تظهر على وجه أبي طارق عندما يقوم بحساب المبيعات والأرباح نهاية كل يوم.

❖❖❖❖❖

مضى الأسبوع الأول. تَمَنَّى ألا يكون بعده أسرار. لكن الآماني لم توجد لتتحقق. فكان طبيعياً مغادرته مبتسماً خلال قوله لنعيم «تركتُ لك بعدي سرَّان، دهشة أبو طارق، و الفتاة الصغيرة. إيَّاكَ و اكتشافهم. فإنَّك إن فعلت، فقدت معنى وجودك هنا». في داخله رفض الأخذ بالنصيحة. لكن جوارحه لم تساعده لترجمة رفضه لأرض الواقع، فكان يعجز تماماً أمام سؤال أبي طارق عن سبب دهشته أثناء جَرْده اليومي. أما الفتاة جاءت طيلة أيام الأسبوع الثاني. و كانت أحيَاناً تأتي مرتين في اليوم. في حالة وجود زبائن، يتظاهر بالإنشغال التام معهم فيما يحاول اختلاس نظرة نحوها بين الفينة و الأخرى. و كثيراً ما تفاجأ بإزاحة نَظَرها عنه لحظة إحساسها بتحويل نَظْرَته صوبها. أما في وقت قدومها، و غالباً ما كان وقت قدوم وفا في المَاضي، و نعيم وحده في البقالة، فإنَّهُ يفقد السيطرة على دقات قلبه. يتسارع نبضه بوتيرة متذبذبة كما لو أنَّ أفواجاً من الكلمات و المشاعر تتصارع دفعة واحدة للخروج من جوفه فتُبْقيها ضيق المساحة تعتصر داخله. منذ رؤيتها قادمة. تترقرق أشعة الشمس عليها فيُضيءُ سواد شعرها المنسدل لما تحت كتفيها. تدخل فتجعل للعمل معنى آخر. تدخل فتَطْمَسُ هوية البقالة. تدخل فيخون القلب نعيم، يدقُّ سريعاً، يشعر بَألم في صدره فيكتفي بالجلوس مسنداً مرفقيه على الطاولة و رامياً رأسه بين كفيه، كأنَّ الداخلَ وفا و ليس فتاة صغيرة حلوة الروح. ويسير أسبوعه الثاني على هذه الحال. لم تعد تُهمُّهُ دهشة أبو طارق أثناء الجرد. تلك الفتاة فقط صارت مصب اهتمامه. تمنى لو يَتَجَرَّأ فيكون صاحب الخطوة القادمة. لكنها عادت للمبادرة مع

بداية الأسبوع الثالث، حين دخولها ذات ظهيرة، و نعيم على سكونه يصارع بصمت نبضات قلبه، قامت مُتَعَمِّدَةً بمسح أناملها بكف نعيم حينما مَدَّ يده لإعطائها باقي النقود. و كما تعود الروح لجثة هامدة، تَنَفَّسَ بعمق، اتَّسَعَ صدره، فآبت نبضات قلبه لطبيعتها. رفع رأسه فرأى ثَغْرَها المبتسم. و استطاع رؤية ابتسامته تَبْرُقُ في عينيها. ابتسامة واحدة هيَ لكنها رُسِمَت على ثَغْرَيْن في آن واحد. تَبَسَّمَ كلاهما قُدْسِيَّة الابتسامة، فلَم يَجْرُأَ على خدش مَهابَتها بالكلام. لتنتهي النظرة و تبدأ الابتسامة. دون تَنَبُّه أحد، قبل نعيم، أنَّ ما بين النظرة و الابتسامة لمسة تائهة وَجَدَتْهَا أناملَ تلك الفتاة التي استدارت عائدة إلى منزلها، و على وَقْع كل خطوة تخطوها تَسْلُبُ شيئاً من كيان نعيم لن يستطيع استِرجاعه ما دام أسيرَ الأرض.

تغيب عن ناظريه و بسمتها لا تَغب. غدا يقارن ما بين لين الابتسامة و قساوة النظرة. في الأولَى دفءٌ و حنان يتربص بهما خوف و برد يُشَبِّعانِ الثانية. لا عداء بين الابتسامة و القلب الذي يسير طبيعياً بلا اضطراب حالَ رفْقَتها. بعكس النظرة إذ تنقسم نظرات مخطوفة مسروقة تشعر معها أَنَّكَ ترتكب جُرماً ما، أو تَهْتكُ حُرْمَةً آمنَةً، فيضطرب قلبك، يفقد توازنه، و يَخْتَلُّ مَمْشاه. النظَرة فقط في البقالة. البَسْمَةُ في كل مكان. حين عودتها من المدرسة تبتسم و يبتسم دون النظر لبعضهما. عندما تخرج مع عائلتها يبتسمان. خلال حديثه مع المندوب يبتسم، فيتحايل للحصول على كيس فُوَطٍ مجانيٍّ لابنه الرضيع. في معرض شجار والديه يبتسم، فيوقفان الشجارَ. لحظة دخول وفا إلى البقالة يبتسم، فيغادر دون شراء أي شيء. هو يبتسم، و هي تبتسم. و في النهاية سَيَمَلَّآنِ الابتسام و يُفَكِّرانِ في كيفية إنجاب السلام.

❖❖❖❖❖

«بقي أسبوع. صحيح؟». أومأ موافقاً. «تذكر، لا تصرف أي ورقة. أريد المبلغ كاملاً» السيد إبراهيم يكلم نعيم قبل خروجه للعمل مع بداية الأسبوع الرابع. لا يملك سوى الموافقة رَغْمَ شعوره بالعار حينما يعمل شهراً كاملاً دون الحصول على مقابل. و مع هذا ابتسم، فالمال لأبيه و الفتاة له. وَجَدَها في البقالة تحاور أبي طارق حول أحد مواد التنظيف. للمرة الأولى يسمع صوتها. عَذبٌ نَقيٌ هَالَتَهُ الرزانة. «صباح الخير» قال نعيم متوجهاً خلف الطاولة. رَدَّ أبو طارق القول و السيجارة بين شفتيه. و لم تتوانى هي عن قول صباح الخير. وقف نعيم بجانب البائع الذي استدار للخلف لالتقاط كيس، فاستَغْفَلاهُ خاطفين بسمة الصباح. «ظَنَنْتُها بكماء» قال نعيم بعد مغادرة الفتاة. «إنَّها خجولة جداً. لا تفكر يوماً في مُغازَلَتها» قال أبو طارق موَضِّحاً و مُمازحاً فيما يتجه للصعود إلى بيته. و مع أنَّ اليوم في بدايته إلا أنَّهُ جلس على الكرسي كمن يرتاح بعد عناء يوم طويل. لم يَدُر بباله أنَّ أبا طارق سيكون عَرَّابَ سلامهما. لولا وجوده لَما تَجَرَّأ على النطق. بلا مُباركَته لدامت عقدةَ لسانَيْهما. ها هو السلام لم يعد شيئاً صعباً. عَنَدَ وجود زبائن تَقول السلام عليكم. حين يكون وحيد تقول صباح الخير أو مساء الخير تَبَعاً للوقت. استَثْقَلَ انفرادها بالسلام. فأصبح يتظاهر أحياناً بالمشي في الشارع فقط ليلقي عليها التحية إذا ما تصادف مرورها حتى و لو مع عائلتها أو صديقاتها فهي تعلم أنَّها المقصودة. و في الوهلات القليلة التي يتنبأ خلالها بمجيئها، يقوم بالدخول في الفسحة المربعة الصغيرة الكائنة آخر زاوية البقالة اليمنى، بالنسبة للداخل، يتظاهر بترتيب البضاعة التي لم يجد

لها متسعاً على الأرفف. تدخل فلا ترى أحداً. تبحث عنه مُطْلقَةً نظراتها في جميع الأماكن. يخرج فجأة مبتسماً «مساء الخير». تبتسم و الحياء يكاد يحجب صوتها «مساء الخير». اكتشفت حيلته، فأصبحت تتوجه نحو الزاوية مباشرة مُلْقيَةً التحية. و ما أن تصل حتى يصيبها الذهول، الزاوية فارغة. عندها يدخل البقالة كملاكم من الوزن الثقيل قائلاً بنبرة المُنْتَصر «مساء الخير». يَلْتَبِسُ عليها الأمر فلا تَقوَى على قول شيء. يُسْرِعُ طارق في قلب السحر على الساحر، حين يدخل بعد وقت قصير سائلاً نعيم بنبرة مُحَقِّقَة «لماذا كنت مُختبئاً أسفل الدرج تاركاً البقالة بلا مراقبة؟». يفهم مغزى ابتسامة دارين. و ما بين إحراجه أمامها، و حَنَقه من بلاهة طارق، يُجيب بكل فظاظة «أردت إخافَتك». كأنَّ الأمر سَبَاق، يَكْسَبُهُ البادئ بالسلام. أحسَّ أنَّ طموحاتها ذَبلَت عند السلام. يُلاحظ ذاك السرور البادي عليها، حينما تُسَلِّمُ عليه، يوحي بأنَّها تجاوزت سقف أمانيها. خلال وقت النظرة لم يحتج أي مجهود يُذكَر لإبصار مدى لهفَتها للإنتقال إلى الخطوة التالية. أما الابتسامة كانت دليلاً قَطْعيَّاً علَى تعبيد الطريق نحو السلام. و كما هيَ الحال، نَصلُ السَلام فيكتفي أحد الأطراف اكتفاءاً كُلِّيَّاً، بينما يرفض الطرَف الآخر إيقاف عجلة الزمن و نَبْذ هموم الحياة. وصلت الفتاة باكراً حد الإشباع. أما نعيم لم يقف بعد على خط الإنطلاق. ليست سوى البداية بالنسبة له. أصبح يفكر بالكلام مع اقتراب إلتهام المستقبل لما بقي من الأسبوع الرابع. أجْزَعَهُ عبء الكلام الثقيل. يراهُ مطرقَة تَهْدمُ الصورة الكاملة و الهالة المقدسة. يعلمُ أنَّهُ هوَ لا غيره سَيُعَرِّي عيوبه و عيوبها. بالكلام فقط سيقتربان كثيراً

إلى الحد الذي قد يصبح كُلاًّ منهما مجرد شخص عادي في نظر الآخر، فيستغربان لما تَوَهَّمَا ذاك الإنجذاب المتبادل. قد يبكينا الكلام و ربما يفرحُنَا، كيف لا و هو الذي خَطَّ مصائرنا بين دَفَّات اللوح المحفوظ من قبل أنْ نكون شيئاً مذكوراً. «غداً سأعطيك راتبَ أول شهر» أخرجته كلمات أبو طارق من أفكاره. لاحت فكرة في بال نعيم قَدَّرَ معها أنَّ أبا طارق يدفعه للمبادرة للمرة الثانية. غداً سيكون معه مئتا ورقة نقدية، و الكلام لا يَصحُّ ابتداؤهُ بالكلام. يجب إسباقه بشيء مادي محسوس. شيءٌ يُشْعَرُها بشعور ستعجز عن الشعور بمثله مرة أخرى. هدية. الكلام سَتَسْبِقُه هدية. لكن السيد إبراهيم يريد كامل المبلغ. أيخبئ جزءاً و يَدَّعي فقدانه؟ إيَّاكَ يا نعيم، ستموت أُمُكَ جَرَّاء لكماته القوية. ابتسم ساخراً «أبو طارق يدفعني و أبي يسحَبُني». قَرَّرَ ترك الغد للغد يتلاعب به كيف يشاء. و قبل مغادرته هذه الليلة لاحظ، للمرة الأولى، علامات تذمر و عدم رضا حَلَّت محل علامات الدهشة و التعجب دائمة الظهور على وجه أبي طارق أثناء حساب المبيعات و العوائد نهاية كل يوم.

❖❖❖❖❖

رأى في الأمر عدالة تامة، فعدم قدومها اليوم توافق مع الإهتمام الواجب إعطائه لها. و هذا اليوم بالذات لا يمكنه الإهتمام بها، لأنَّ كل ما فيه مُشْرَئِبٌ للقاء لحظة تَسَلُّمه الراتب. ليس المال لذاته أساس حماسه، فعدا عن قلة المبلغ، فإنَّ السيد إبراهيم سيحصل عليه كاملاً. اللحظة نفسها هي مُراده. لطالما استهوته مشاعر و حالات الفرح و السعادة التي كان يَرْقُبُها في أرواح الناس لحظة تَسَلُّم رواتبهم. و رغم مشاركَتُهُ أفراحهم وجدانياً، إلا أنَّ صغَر سنه، أوَ عدم عيشه نفس الحدث، أبقاه غَير مستوعب تماماً لكَمية السعادة الهائلة تلك. حتى أنَّه شاهد اللامنطقية مُتَجَسِّدة في تلك الحالة، حينما تستطيع حفنة أوراق نقدية خلق كل ذلك الفرح من فوقه سعادة و من تحته سُرور. نعيم فقط، ذاك الصغير، أدرَكَ الأمر. أبْصَرَ التعاسة المُحيقة بتلك الفئة. رأى البؤسَ يُدَنِّسُ مستقبلهم فيدخلونه بلا أيِّ أمَلٍ بيُسْرٍ بعد العُسر. يريدون فقط الفرح. يبحثون عنه تحت أي ذريعة حتى لو كانت حفنة أوراق نقدية لا تقدر على إحتمال رائحة جيوبهم النتنة فتسارع للإستقرار في جيوب أخرى أزكى رائحة و أكثر نظافة. و الآن عندما وقف أبو طارق يَبْسُطُ يده له بالنقود، لم يشعر بأي شيء. ناظَرَ الموقف كما لو أنَّهما آلتان مبرمجتان على القيام بهذا العمل دون أيِّ استيضاح عن المَغْزى. إلا أنَّه في اللحظة التي لامست فيها رؤوس أصابعهُ خشونة الأوراق النقدية، داخَلَهُ بعض الحزن، لأنَّ ذلك الفرح الذي طالما شاركه الآخرين، لم يستطع مشاركته مع نفسه. حاول خداع ذاتَهُ، لكنه يعجز عن إيهام كيانه. فقط أخذ النقود و دسَّها في جيبه مباشرة تحت نظرات أبَي طارق المندهشة من برودة نعيم الذي بدا كما

لـو أنَّـهُ تَلَقَّـى إشـعاراً بالحجـز علـى أملاكـه و ليـس مبلغـاً مـن المـال. «ألـن تَعُدَّهـا؟». «لا». جوابٌ مباشـرٌ سـحب البسـاط الأحمـر مـن تحـت أقـدام أبـي طـارق. انتظـر جوابـاً يُشْـعِرُهُ بمكانتـه المرموقـة مـن قبيـل أنَّـهُ لـن يَعُـدَّ بشـكلٍ أفضـل منـه، أو أنَّـهَ مـن غـير اللائـق العَـدَّ بعـده، أو حتـى إنْ وجـدَ نقـصٍ في المـال فلـن يُطالـب بـه لأنَّ اسـتلام المـال مـن بـين يديـه بحـد ذاتـه فخـرٌ عظيـمٌ. و لَمَّـا لم يجـد ردة الفعـل هـذه. و رأى ملامـح نعيـم الـتي لا ترتسـم إلا علـى وجـه جنـدي يقـف وحيـداً علـى جبهـة مكشـوفة، تَيَقَّـنَ أنَّـهُ مـن القلائـل الذيـن اسـتطاعوا إنـزال هـذه اللحظـة منزلهـا الحقيقـي. و هـذا مـا ألزَمَـهُ علـى الإعـتراف، لنفسـه، بخطـأه حينمـا اعتقـد أنَّـه سـيكون مركـز هـذه اللحظـة. ظَـنَّ بريـق النقـود بـين يديـه سـيخطف ألبـاب نعيـم. تَخَيَّلَـهُ كثيراً كحيـوان مفـترسٍ حبيـسَ قفَـصٍ مُتَلَهِّـفٍ للحصـول علـى الطعـام الـذي سـيرميه لـه. حتـى أنَّـهُ رأى نفسـه إلهـاً سـيقوم بمنحـه حيـاة جديـدة و إمـداده بنعيـم لا ينضـب. هكـذا ظَـنَّ. و هـذا مـا كان يأمـل. و هـا هـو الآن يراقـب خيبـة أملـه. يـرى نـوراً، يُشـعُّ مـن نعيـم، يُغيظُـهُ بإعلامـه أنَّـهُ مجـرد ذرة صغـيرة لا قيمـة لهـا مـن مليـارات الـذرات الـتي تسـبح في فَلَـك لا وجـود لـهُ بذاتـه، لا وجـود لـهُ إلا بوجـود المركـز، بوجـود نعيـم. أبـو طـارق عنيـد لا يَرْضَـخ. يَـرُدُّ علـى النـور بأنَّـهُ و إن كانَ ذَرَّةً قيمتهـا معدومـة، فـإنَّ بمقـدوره كسـر قوانـين الطبيعـة، و جَعْـلِ أحقـر أجـزاء المحيـط يأمُـرُ المركـز، الـذي يـكاد نـوره يذهـب بالأبصـار، بفعْـلِ شـيءٍ مسـتقبلاً «سـتعود». كان علـى وشـك الخـروج حينمـا سَـمِعَ ذلـك. لم يفهـم مقصـد أبـو طـارق مـن ذلـك القـول، فأجابـه ممازحـاً «بالتأكيـد سـأعود غـداً». يقصـد بيتـه عبر ذات الطريـق الـذي دَلَّـهُ أبو طـارق عليه

قبل شهر من الآن. على يساره منحدر متوسط الشدة تَمْلَؤُهُ صخور ناتئة. يُودي إلى قطعة أرض فسيحة شبه صحراوية يبعث منظرها الكآبة في النفس، خاصةً مع قطع الحشائش الصفراء المتناثرة فوق تُرْبَتها الباهتة. وقف أعلاها مُجيلاً بصره في نواحيها. وَرَدَ بخاطره عقدَ لقاء مع الفتاة في هذه البُقْعَةَ المتوارية عن أعين الناس و الصالحة لإرتكاب جريمة قتل دون خوف هَتْك الخصوصية. كَمْ رَغبَ في أخذ موعد منها بعد إهدائها هدية. شَعَرَ بوَخْز في قلبه. يملك المال لكن لا يَحْكُمُه. راح يَتَحَسَّسُ جيبه المُشْمَئز من ضيافة النقود. أخرجها بحسرة و قام بعَدِّها ليَتَسَمَّرَ في مكانه بعد ذلك، إنَّها ثلاثمئة. أعاد عَدِّها ليتأكد مرةً أخرى بأنَّها ثلاثمئة. فجأة تَرِنُّ كلمة أبو طارق في أذنه كجرس كنيسة «ستعود». تتحقق نبوءة أبو طارق، نعيم يعود.

❖❖❖❖❖

مـن المؤكـد أنَّـهُ علـى علـم بأمـر المئـة الزائـدة، كان نعيـم يفكـر مـع نفسـه. و قـد تأكـد لـهُ ذلـك تبعـاً للوضعيـة الـتي وجـد أبـي طـارق ينتظره بهـا . سـادت لحظـة صمـت أعطـت الموقـف مـا يسـتحقه مـن غمـوض، و أعْلَمَـت أبـا طـارق أنَّ نعيـم حاليـاً لا يملـك حـق اسـتخدام سـوى حاسـة السـمع. «كنـت سأُشَـكِّكُ بأمانَتـكَ لـو لم تَعُـدْ». «ألهـذا فعلـت ذلـك؟» سـأل مُرتابـاً. «بالطبـع لا ...» قَـام مـن مكانـه يخطـو صَـوبَ نعيـم « ... متوسـط مـا كُنـتُ أبيعـهُ في اليـوم الواحـد مئـة و خمسـون ورقـة تقريبـاً . أمـا أنـت، فمنـذ يومـك الأول بِعْـتَ بمئتـين و سـبعين ورقـة. و في اليـوم الثانـي بمئتـين و خمسـين ورقـة. أمـا الثالـث فـكان الأكثـر بثلاثمئـة ورقـة. و علـى طـول الشـهر بَقـيَ معـدل مبيعاتـك يتراوح مـا بـين مئتـين و خمسـون ورقـة و ثلاثمئـة ورقـة. عـدا الأمـس إذ بعـت بمئـة و ثلاثـين ورقـة، و اليـوم بأكثـر مـن المبلـغ السـابق بخمـس ورقـات فقـط». «مـا معنـى ذلـك؟». بـدأ أبـو طـارق يشـعر بأنَّـهُ يسـتعيد المركـز شـيئاً فشـيئاً «هـذا يعـني أنَّ المئـة الزائـدة مـن حقـك. و لكـن عليـك الحـذر، فـلا تجعـل عمـل الأمـس و اليـوم نهجـاً تسـير عليـه. و إنَّمـا اعتَبِرْهُـم مَحْـضَ هفـوات لـن تقـع فيهـا مـرة أخـرى». لا يرْغَـبُ في إضاعـة متعـة اللحظـة الآنيـة بالتفكـير في المسـتقبل، ممـا جعلـه يهتـم بـأولى كلمـات أبـي طـارق فقـط، تلـك المتعلقـة بالمئـة الزائـدة. «أتعنـي أنَّـك لـن تأخـذ المئـة ورقـة؟!». غريبـةٌ السـعادة علـى وجـه نعيـم. أبـو طـارق يقيـس مقدارهـا بنظراتـه، فيجـد إختـلالاً واضحـاً في أركان نظريتـه المقدسـة، المركـز و المحيـط. سـعادة نعيـم تفـوق سـعادته بأضعـاف. فَعَجِـبَ كيـف يشـهد المحيـط سـعادة لم يسـبق لتاريـخ المركـز إيجادهـا . أبـو طـارق مطـروق الـرأس يجيـب نعيـم بنـبرة واهنـة «هِـيَ لـك». مَوجـات سـعادته تتغلغـل

إلى أعماقه تُفَقِّهُهُ أنَّ لكل منا كونه الخاص. التأملات، الإنكسارات، الطموح، الحزن، الأحلام، و السعادة ليست حِكراً لأحد، هُنَّ مُلْكٌ للجميع.

يُدْرِكُ متأخراً أنَّ كل إنسان مركزٌ ناقصٌ يُكَمِّلُهُ إنصهاره مع المراكز الأخرى. أما المحيط فليس سوى قناعٌ مُزَيَّنٌ لأنانيَّتنا المفرطة. وَهْمٌ اختَلَقَهُ كبرياؤنا الزائف للهروب من حقيقة أنَّ وَجودنا و عدمه سَيَّان. انسابت المعاني الجديدة محيط أبي طارق مُتَقَمِّصَةً سكينَةً تَنَزَّلَت عليه ماهَتْهُ مع الهواء. نظريته المقدسة أضحت جهالةً وجد عليها قومه فاتَّبَعَها. أبو طارق جديد يُنْحَتُ بمعْوَلِ نعيم الذي نَسيَ التأثير السحري لاستلام الراتب. كما نَسيَ الفقراء و عناء بحثهم عن الفرح. نَسيَ أبا طارق. بل إنَّهُ نَسيَ الوجود كله و لم يعد يرى سوى الطريق الترابي سائراً في ظلامِ أحشائه مذعوراً الصَّحْوَ من واقعٍ يُمَكِّنُهُ من شراء هدية.

❖❖❖❖❖

ليسَ كليل السوق لَيْلٌ. سُحبَت الحياة من كل مكان و كُدِّسَت هنا. الأضواء المُعَلَّقَة تغازل الشارع بإلقاء نورها عليه فَتُصَيِّرُهُ لُجَّة. جموع الباعة و بسطاتهم المتناثرة تُصَوِّرُ المُتَسَوِّقين ضعْفَ عددهم. الفتيات الجميلات يَتَصَنَّعْنَ تجاهل مُعاكَسات الشبَاب مُضْمرات البَهْجَةَ في أنْفُسهنَّ. أطفال صغار يجرون ناثرين البراءة في أرجاء المكان. أصواتٌ تتلاطم ببعضها فلا تفهم منها شيئاً كسيمفونية تُعْزَفُ بلا مايسترو. و رائحة الجماع الجَماعيُّ للعديد من لحظات الفرح المؤقت أفرزت رائحةً، قام معها جان باتيست غرونوي بقتل خمسة و عشرين عذراء لاستخلاصها، نَشَت دماغ نعيم مؤكدة أنَّ كل ما يعيشه الآن ما هو إلا هدية من مجهول لقاء الهدية التي سيمنحها للفتاة. تناثرت أمامه الخيارات المُدَثَّرة بالحيرة، متجر ألبسة، أعمى يعرض نظارات شمسية، متجر عطور، فاتنَةٌ حافيةَ قَدَمَيْن أمامها مجموعة أحذية نسائية، مكتبة، متجر ألعاب، و غرفة لا ينيرها سوى ضوء أحمر خافت تحوي أقنعة و تحف شرقية. حَارَ بالهدية الأنسب لإسقاط جسر الصمت السائرينَ عليه معاً فوق بحرٍ من الكلام. و بلا سابق إنذار، قُبِضَ قلبه فجأة إثرَ رؤيته عائلته، والده، والدته، و إياد. بدوا كعائلة أرستقراطية بلباسهم الفاخر، و طريقة مَشْيهم التي أحاط فيها إياد عنق والده بذراعيه، فيما قام الوالد بالتأكيد على رغبته، في حَمْل إياد، بإسناد مؤخرته على ساعده الأيسر القوي الذي لطالما أحاط بعُنُف رَقْبَةَ زوجته السائرة حَالَياً بجانبه في منتهى الرقة حاضنَةً كفَّ زوجها الأيمن في كَفِّها الأيسر برومانسية قد تُفَجِّرُ أزهار الغاردينيا من بين كَفَّيْهما. حَالَ الخوف دون تَمَعُّنٍ و استغرابِ نعيم. الإبتعاد عن مجال بصر

والده هو فقط ما جَالَ بخاطره، فَدَلَفَ لأقرب متجر موجهاً نظره للخارج يتابع مَسيرَ عائلته. و في لحظة توقفهم عند متجر الألعاب، سَمعَ نَحْنَحَةً من الخلف. التفت تلقائياً فأبْهَرَهُ لمعان الذهب و بريقَ الألماس اللَّذَيْن تَوَسَّطَهُما رجل أبيض الشعر، معتدل الجسم، يرتدي بدلة يوحي سواد لونها بأنَّك تحدق في فراغ مُعْتم، أو تنظر لبوابة تقودك لأحد الأكوان الموازية. سار نعيم نحوه مُرتَبِكاً موقنٌ أنَّ هديته المتواضعة لا ترقد في هذا المكان الفخم، لكن كل ما أراده الإبتعاد قدر الإمكان عن موجات رادار والده. «تفضل» قال التاجر بعد نفاذ صبره من سكوت نعيم. «نعم...» قال مُشَوَّشاً « ...أريد ...» تنحنح نعيم «هل عندك ذهب رخيص؟». السؤال الساذج أضحك التاجر ضحكة من أعماق قلبه، فسأل و الضحكة مستمرة بالظهور بين كلماته «ماذا تقصد بذهب رخيص؟». ضَحكَ مجاراةً لضَحك التاجر، مع إستمراره في الإلتفات بين لحظة و أخرى لواجهة المتجر خوف دخول عائلته في أي وقت «ألا يتعدى سعره ثلاثون ورقة». «يا لَهُ من مبلغ كبير» قال التاجر بطريقة توحي بفُكاهَة أكثر منها سخرية، قبل إسناد مرفقيه على الطاولة «أتُفَضِّلُ الحَلَقَ، الخاتم، العقْدَ، أم الأساور؟». شَرَعَ يَقْرُضُ ظفْرَ إبهامه الأيمن مُطرقاً في تفكير عميق، و كأنَّهُ يسأل نفسه ذات السؤال، ليقول بعد برهة «لم تواتيني الفرصة لسؤالها». «آها، أمسكت بك. مَنْ هيَ؟» تَحَدَّثَ بسعادة صبيانية، تَخَيَّلَهُ معها نعيم بأنَّهُ أحد أصدقائه الطُفَيْلِيِّن بعد معرفته أعظم أسراره. و نعيم نفسه لم يفطَن لإرتكابه خطأ إلا بعدما نَطَقَ الجملة لاشعورياً مُتَعَجِّباً هو ذاته من قولها. و بعد نظرة متسائلة بطرف عينه نحو التاجر، أدْرَكَ أنَّهُ ألقى سؤاله

بدهاءٍ أدْخَلَهُ عَبْرَهُ لمنطقة لن يستَطِعْ معها إلا التفكير و هو يقرض ظفره ثم الإجابة بتلك الطريقة. و هذه الابتسامة، غير المعروف صفَتها، المرسومة على وجه التاجر، فيما نعيم غارق في تفكيره، أشَعرت هذا الأخير بأنَّ الأول على علم بكل شيء مما زاد في غَيْظه «و ما شأنك أنت؟». «لأعرف حجم القطعة، أهيَ كبيرة أم صغَيرة؟». كبيرة أم صغيرة. تساءل نعيم إذا ما كان يقصد القطعة أم من ستؤول إليه القطعة. إلا أنَّ تساؤله لم يحتل حيزاً كبيراً من اهتمامه بعد تذكره من جديد عدم قدرته على شراء هدية من ذهب أو ألماس، فقال مطاطئاً رأسه بنبرة عاجزة منكسرة «ليس مهم». استدار قاصداً الخروج من المتجر. و ما أنْ رفع رأسه حتى وجد نفسه مرة أخرى في مواجهة التاجر، كأنَّهُ لم يستدر أبداً. المكعب الذي رآه بين يدي التاجر لم يسمح لتلك الحادثة الشاذة بدخول حقل تساؤلاته، كما لو أنَّ ما حدث لم يحدث. مكعب صغير الحجم تُغَلِّفُهُ المرايا من جميع الأوجه. يُقَلِّبَهُ التاجر بين يديه فيما نعيم ينظر إليه مذهولاً لرؤيته محطات من حياته عاشَها و أخرى لم يَعشْها بدلاً من رؤية انعكاسه. رأى أباه يأخذه لحديقة حيوانات، أُغْلقَت قبل ولادته، ليُرِيَهُ الأسد. رأى نفسه و له من السنين سَبْعٌ يحَادث والده المسافر، عبر الصوت والصورة، ليقول له ببراءة مُذْنبَة «تَعالْ» فتغوص عَيْنَا الوالد بالدموع. رأى أُمَّهُ تقدم كأس ماءً لأبيه، ثم تقوم مسرعة بصفعه بعيداً أثناء طريقه لشفاهه، لترتمي بعد ذلك في أحضانه مُجْهَشَّةُ بالبكاء، فَيؤنبها بكل حَنانَ لأَنَّها لم تدعه يشرب الكأس. رأى إياد ابْنَ اثنى عَشَر في حواصل طَيْر خُضْر تحت عرش الرحمن. رأى نفسه و له من السنين سَبْعٌ يستيقظ ليلاً

على أصوات صادرة من غرفة والديه، يظن معها أنَّ أباه قد عاد، فلا ينام ما تَبَقَّى من ليلٍ حماساً لصباح يُقَبِّلُ فيه والده، يأتي الصباح و لا يأتي والده. رأى شجرةً تَسَلَّقَها ذات يوم هرباً من كلب، ليشاهد جَدَّهُ جالسٌ على الجذع الذي يعلوه راغباً بأخذه معه، فلا هو قام بالصعود و لا جَدَّهُ أمْكَنَهُ النزول. رأى قضيبه معقودٌ بقضيب والده يصرخان وجعاً لا يَقْدِران منه الفُكاك، تحت أنظار و قهقهات والدته و الفتاة الصغيرة أثناء ممارَستهنَّ السُحاق. رأى نفسه و لهَ من العمر أربعون يتأبَّطُ سيفاً يَقْطُرُ دَماً وَسْطَ خرابٍ و أنقاض يصيح يا اللّٰه العدمُ أم البلاء. رأى أبا طارق سجائره أوراق نقدية يعترض طريق إحدى الطائرات. رأى كثيراً و رأى حتى استحالت رؤاهُ إلى كلام «ما هذا؟». «اقترب» إيقاع سحري لصَوْته. حوريَّةٌ تُسَيِّرُهُ بملء إرادته، فلا يملك إلا الابتسام وسْطَ إحساسٍ بالطمأنينة أشعَرَهُ بالهلع. التاجر، الأشبه برأسٍ و كَفَّيْن يربطهم ظلام على شكل بدلة، يفتح العلبة أمام عيني نعيم، فتَرَيان خاتماً من ذهب فُصِّلَ بين كَتفَيْه إطار مربع انبثقت من زواياه الأربع أرجل، كأرجل عنكبوتٍ مقلوب على ظهره، توقف امتدادها فلم تتلامس مُخَلِّفَةً فراغ قام بملئه حجر أزرق شفَّاف ترى عوالم محبوسة داخله إذا ما أمعنت النظر. نظرة الذهول أعقبها ابتسامة حزينة «لكني لا أملك ثمنه». «إنَّه هدية». عَقَدَ حاجبيه «كيف!». يهز التاجر رأسه «كما أقول لك...هدية». يضعها على الطاولة أمام نعيم مبتعداً عنه. «لكن أنا سآخذه كهدية. فكيف تهديني هدية لأقوم بإهدائها لشخص آخر، و أنت تعلم أنَّ الهدية لا تُهدى؟». يبتسم التاجر فيما يَحُكُّ أنفه «و لا تُباع». تساءل إذا ما كان هذا

الشخص مجنون أم رأى فيه أحمقاً يتلاعب به «سيدي أنت لست طرفاً في الأمر. إنَّكَ مجرد تاجر تبحث عن الربح. فلماذا تخسر خسارة كهذه؟». «مَرْبَحي أن تكون سعيد. و أنْ تتذكرُني كلما رأيت محتاجاً على جوانب الطريق، أو إمرأةً حَبَسَ تركيزها الْهَمَّ» مَسَحَ بيده على شَعرِ نعيم بحركة خاطفة، فما كان من هذا الأخير إلا أنْ أخذ العلبة بصمت، و استدار خارجاً من المتجر. بعد خَطْوِه تِسْعَ خطوات، استفاق من سَكْرَته. تلفت يبحث عن المتجر فلم يَجِده. قَدَّرَ أنَّه موجود في مكان مَا هناك. لكن حشود الناس الغفيرة وارَتْهُ. نظر نحو كفه الأيمن القابض على العلبة فقَبَّلَها و ابتسم. بعدها عَزَمَ العودة إلى البيت. و ما هي إلا بضع خطوات حتى سمع صرخة السيد إبراهيم الغاضبة «نعيم». تَصَنَّمَ في مكانه. و بدأ جسده يرتعش. استمر صدى الصرخة يتردد في أذنيه مُتَسَلِّلاً نحو كل ذرة من جسده، مدخلاً إياه في نوبة هلع، جَعَلَتْهُ يقبض على العلبة بكلتا يديه ضاماً إياهن إلى صدره، مُطْرِقاً رأسه فوقهن، و مغمض العينين منتظراً صفعة تهوي على رقبته. طال وقوفه على هذه الحال حتى بدأ الهلع يتسرب من جسده. فتح عينيه ببطء. فلم يرى حذائه بجلاء لعدم وجود ضوء. رفع رأسه سريعاً مريحاً يديه على جانبَيْه. تلفت حوله باحثاً عن الحياة. لا شيء. السوق بأكمله مغلق. فقَط ظلام يخفف من حدته طيفٌ من نور القمر. و صمت مطبقٌ يَخْدُشُ حياؤهُ غناء الصراصير. نظر ليُمناه بتَوَجُّس. رفع العلبة لمستوى صدره. ثم فتحها كأنَّما يُري ما بداخلها لشخص مقابله. بدأ يديرها بإتجاهه ببطء شديد. و لَمَّا رأى طرفاً من إطار الخاتم أدار العلبة نحوه سريعاً. تنفس الصعداء

و حشر رأسه بين يديه غير مصدق. لم يختفي الخاتم. أغلق العلبة قابضاً عليها بقوة، و ركض سريعاً نحو بيته حيثُ لَمَسَ الفرح، الذي جافاهُ لحظة تَسَلُّمه الراتب، بين أحضان و قبلات والده التي راح يَطْبَعَها على شفاهه كَعشيق متلهف لشفاه عشيقته. كما سمعه بين صيحات و تشَجيعَات إياد و هو يهتف «نعيم...نعيم...نعيم». و أحَسَّ به بين أصابع أمه حين بدأت تُمَسِّدُ شعره بتحْنانٍ أجبر ضميره على تأنيبه لتجاهله حقيقة أنَّ هذه الأصابع أوْلى بالخاتم من أصابع الفتاة الصغيرة. و على الرغم من نَوْم نعيم تلك الليلة و في حوزته مئة ورقة نقدية و خاتم ثمين جداً، إلاَ أنَّهُ ناجَى اللّٰه من أعمق أعماق قلبه ألَّا يوقظه أبداً.

❖❖❖❖❖

خلافاً للعادة، اكتظت البقالة بالزبائن منذ الصباح. كانت بينَهُم. بدا الغَمَّ عليه، كما بدا عليها. و خافا حتى استراق بضع نظرات قد ينجح أحد الموجودين في ترجمتها. غادرت فيما الزبائن مستمرين بالتوافد. كان أبو طارق يُهَرْوِلُ في أرجاء الحي. و حين أصبح قريباً من البقالة، نظر نحوها منبهراً كثرة الزبائن. ابتسم بعد برهة، ثم راح يَشُدُّ الخُطى لمساعدة نعيم كطفلٍ يجري لتلقي هدية. ما أنْ رآهُ نعيم قادم حتى قام بإغلاق العلبةً و دَسَّها في جيبه. لم يدخل البقالة أحد بعد أبا طارق. حتى الزبائن الذين كانوا في البقالة، خَفَّ حَمَاسَهُم فجأة للشراء، فمنهم من غادر دون شراء أي شيء، و الذين يملكون أدنى قدر من اللباقة اشتروا بما لا يَتَعَدَّى نصف ورقة نقدية. تعجب أبو طارق هذا الفراغ الذي حَلَّ سريعاً، و كأنَّ كل الذين كانت البقالة تَعُجُّ بهم مجرد سراب. راح يوَزِّعُ نظراته خارج البقالة مترقباً قدوم أي أحد، لكن عبثاً. أحنى ظهره و صعد نحو بيته دون النطق بأي كلمة شاعراً بأنَّهُ نَحْس. عَرَفَ نعيم فيما يفكر أبا طارق. و مع هذا لم يهتمِ، فلا البقالة، و لا الزبائن، و لا أبو طارق يعنون له شيء. الفتاة فقط و لا غيرها. أخرج العلبة من جيبه يتأمل صورته في انعكاس مرآياها. أراد فتحها لولا هاجس غريب واتاهُ بإبقائها مغلقة، فَفَعَلْ. سَرَحَت نظراته صوب الطريق الذي يجيء بها و أرعَبَتْهُ فكرة ألا تعود. لكنها عادت ساعة الظهيرة. تمردت نبضات قلبه فأثقلت أنفاسه. «مساء الخير» قالت وسط ابتسامة ظهرت على استحياء. لم يستطع النطق. اكتفى بإيماءة من رأسه، لم تلْحَظْها الفتاة، مما أثار داخلها تساؤلات صَبَغت ملامحها بريبة بَقِيَت ملازمةً لها حتى لحظة وقوفها أمام نعيم لدفع ثمن

ما أخذت. كان سارحاً يتأمل وجهها . فيما كانت هي باسطة يدها بالنقود متحاشية النظر فيه، بسبب كمية الوقاحة التي أحستها في نظراته النافذة لدرجة شعرت معها أنَّها تقف أمامه عارية. لم يَعُد من شروده إلا بعدما نظرت إليه بغضب، و هَزَّت يدها في إشارة للنقود، فآبَ من غفلته بإرتباك كادَ أنْ يُسْقطَ العلبة من يده. أخذ النقود بيُسراه ناظراً سريعاً نحو المشترياتَ، و متجاهلاً الدقة في الحساب. أخذ قطع نقود حديدية من الصندوق بشكل عشوائي، ثم وضعها تحت العلبة بطريقة قصد منها ملامسة العلبة لعينيها قبل يَدها . حالت النقود و من فوقها العلبة دون تلامس راحَتَيْهما، راحَتُهُ العليا و راحَتُها السفلى. سحب يده بحركة جعلت العلبة تَتَكَشَّفُ ببطء أمام أنظارها . لاحظت، من خلال صورتها المنعكسة في المرآة، أنَّها غير مُسْتَوْعبَة لما حصل. رأى تسابق الكلمات في جوفها للظهور، تَحْرِمَها منَه أنَفاسها المضطربة، فتُبْقيها عاجزة عن الكلام و كأنَّها ستتحدث بلغة جديدة لم تَعْهَدُها من قبل. أرضَتْهُ تلك الحالة فابتسم «إنَّها لك... هَديَّة». قالت مبتسمة بعد أنْ عادت إلى طبيعَتها و راحت تُقَلِّبُ العَلبة بين يديها «بأي مناسبة؟». ضَحكَ قبل قوله بجدية «تعبيراً عن إمتناني للصُدَف التي قادتني لرؤيتك». احْمَرَّت وجنتاها مطرقةً نحو الأرض، ثم قالت تريد تغيير الموضوع «هذه المرآة غريبة». «لماذا؟». أجابت فيما تتفحصها من جميع الأوجه «لا تسمح للبصمات بترك أثر عليها». مَطَّ شَفَتَهُ السفلى «لم أنتبه لذلك...» أضاف مباشرةً مُشَكِّكاً «... ألم تنتبهي إلى أنَّها علبة؟». نظرت له بذهول «حقاً؟...ظننتها مرآة صُقلت على هذا الشكل...» أردفت بعد أنْ راحت تتفحص العلبة

بدقة أكبر «ماذا تحوي؟». أسند ظهره على الكرسي في منتهى الراحة «افتحيها لتعلَمي». نظرت له بطريقة حَرَّكت الشهوة داخله. فتحت العلبة بسرعة متجاهلةً لذة الترقب. اتَّسَعت حَدَقَتاها. بقيت تتفرس الخاتم فيما ملامح فاقت الذهول و الدهشة تَلَبَّست وجهها. راقب نعيم ردة فعلها مبتسماً مَزْهُوّاً بإنتصاره الذي تَقَهْقَرَ حين لَمَحَ شخصين خَمَّنَ أنَّهما قادمان للبقالة، فتَنَحْنَحَ بقصد تنبيه الفتاة التي ارتبكت، حين فهمت قصد نعيم، فأوقعت القطع الحديدية أرضاً، قبل أنْ تَجْمَعَها بمنتهى السرعة، و تغلق العلبة لتدسها في الكيس، ثم تخرج وَجِلة دون أنْ تنسى النظر، بطرف عينها، للشخصين، حينما أصبحت بمحاذاتهم، بقصد معرفة إذا ما شَكُّوا في شيءٍ أم لا. لم يَشُك الشخصان بأي شيء. إلا أنَّهما، و بشكل مفاجئ، قبل بلوغهم البقالة ببضع خطوات، قرروا عدم الدخول ليعودوا من حيث أتوا. فَكَّرَ نعيم بعمق. ثم تذكر الصباح و سيل الزبائن. ليأسَفَ بعدها على أمرين، أولاهُما دوام إدراكه المتأخر للحقيقة، و الثاني الأدهى و الأَمَرّ هو تفريطه بأسهل طريق نحو الثراء السريع.

❖❖❖❖❖

في اليوم التالي، اتجهت نحوه مباشرة دون التذرع بقدومها للشراء. «من أين أتيت بثمن الخاتم؟» بدت كمحقق يستجوب مشتبه به. أطال النظر فيها مستنكراً أسلوبها ذلك. ضحكت بعد شعورها بصَلافة المظهر الذي بدت به «أعتذر، لكن الخاتم ثمين جداً». أوجس نعيم «هل أخبرت عنه أحد؟».

أجابت مُبَدِّدَةً ظنونه «لا، لا، بالطبع لم أخبر عنه أحد. و لن أفعل ذلك أبداً». زَفَرَ طويلاً قبل أنْ يقول متأملاً جمال ارتباكها «لتعلَمي عُلُوَّ مكانتك عندي» وَدَّ قول في قلبي لكنه تحاشى ذلك. خجلت الفتاة خجلاً طال نبرتها «تُحَدِّثُني كما لو أنَّنا نعرف بعض منذ مدة طويلة». أحَسَّ ببرد مفاجئ «ألم تكن مدة طويلة بالنسبة إليك؟». «لا أعلم»قالت و هي تنظر نحو قدمها اليمنى التي وقفت عليها برؤوس أصابعها و راحت تحركها يمنة و يسرة بحركة بَنْدولية. و على ذات الوضعية هَمَسَت بصوت خافت كأنَّها تُحَدِّثُ نفسها «نعيم». أشرق وجهه بسعادة غامرة «لم أسمعك جيداً». عادت تنظر إليه «جميع سكان الحي يعرفون اسمك». قال بعد إلقائه نظرة على الشارع يتأكد من خُلُوِّه «أما أنا لا أعرف اسمك». وضعت كَفَّيْها على الطاولة برقَّة «أيُّ اَسم يليق بي؟». «الإسم الذي يَسْتَحقُّك لم يُوجَدْ بعد». ضحكت من جرأته «إنَّكَ تُبالِغ». اكتفى بالتحديقَ فيها فَرِحاً. نظرت نحو البضاعة المرصوفة على الجدار خلفه، و حال وصول نظراتها الزاوية اليُمنى قالت بغتة «دارين». اتسعت عيناه مطلقاً صفرة إعجاب طويلة «ما أروعه من إسم». وضعت يديها على خصرِها «إنَّك تهزأ». «أنا لا أهزأ. إنه فعلاً اسم رائع. كما

أنَّ هذه أول مرة اسمع به». «أول مرة تسمع به...» قالت بابتسامة ماكرة « ...إذاً، لعلَّ الاسم الذي يستحقني موجود، لكنك لم تكن تعلم بوجوده قبل الآن». تظاهر بالتفكير «أعتقد أنَّ هذا الاسم لم يوجد من يستحقه بعد». ضحكا سوياً، كان الآن فعلاً يهزأ. انتظرت شيئاً معيناً كانت متأكدة من أنَّه سيقوله. فلما وجدت صمته طال، قالت بخيبة أمل «ألا ترغب بمعرفة ما يعنيه؟». ارتسمت على ملامحه ابتسامة رجل حكيم «لا». «لا» أعادت مستغربة. «الخُدَعُ السِّحْرِيَّةُ...لطالما نشعر أمامها بالعجز و الصغر. نبقى منبهرين، و يسيطر علينا الذهول. تَظَلُّ أدمغتنا تستحضرُها، و تُقَلِّبُها في رؤوسنا. يقتلنا الفضول لمعرفة كيف تمكن ذاك السَاحر من خَرْق نواميس الكون و كأنَّهُ مُتَسام عليها. إلى أنْ تأت لحظة نكتشفَ فيها السر. فيبهت البريق. تغادرنا مشاعر الانبهارَ و الذهول ليَحُلَّ محلها إحساس عميق بالحماقة، لإيماننا بحقيقة الوهم. ثم ننسى، تأبى ذاكرتنا إلا أنْ تمحو تدريجياً ما كان يُسْعدُنا و نصفق له، رغم عجزنا عن الإتيان بمثله. لكن قبل النسيانَ، قد تدمع أعيننا، لأنَّ ذاك الذي ظنناه عظيماً لم يكن في حقيقته سوى شيء تافه أحاطته سذاجتنا بهالة مقدسة أخطأنا حين أزلناها. فالأفضل ألّا أعرف المعنى. يكفيني فقط معرفة اسمك، و القدرة على نطقه». تجاهلت إحساس التعقيد الذي لاقته بين كلماته، و أرهفت سَمْعَها له كما لو كانت تستمع لمقطوعة موسيقية كشفت عن آفاق داخلها لم تعلم بوجودها من قبل. وضعت أمامه قطع نقود حديديةً قائلةً قبل مغادرتها «أخطأت في الحساب المرة الماضية».

❖❖❖❖❖

دارين..في لحظات خُلْوَته يقفز الاسم إلى لسانه من تلقاء نفسه، فيشعر بحموضة مفاجئة إثْرَ تخيله الخاتم. يرتاب في مدى حكمة تصرفه به. يمرر يده اليمنى على شعره، ثم يستند بجنبه على إطار باب البقالة ناظراً للطريق الترابي. كان بإمكانه الاحتفاظ بالخاتم و شراء هدية متواضعة تؤدي ذات النتيجة. لم يُخالجه الندم لتفريطه بالخاتم، بل لعدم تفكيره بقيمته المادية إلّا بعدما خسر ملكيته. حين كان في متناوله، رآهُ فقط كهدية. كان يعلم بأنَّه ثمين جداً، و قد اعتبر هذا الأمر ميزة إضافية تزيد من قيمة هديته. انصب كل تفكيره على نقطة واحدة تُخبره أنَّ هذا الخاتم لا يصلح إلّا لأنْ يكون هدية، الأمر الذي جعله يصفه بالخاتم الملعون. نظر نحو البقالة باحتقار إذ خَمَّنَ إمكانية إمتلاكه بقالة يفوق حجمها حجم هذه البقالة بخمسة أضعاف على الأقل، فقط لو تصرف بذكاء. و في خِطام تفكيره هذا، تذكر التاجر. قال لنفسه «الخاتم من نصيبها. عَالم كامل انبثق من بُعْدٍ مجهول فقط ليكونَ لها». بعد برهة، لم يجد كلماته تلك إلّا محاولةً واهنة لتبرير فشله في التصرف إزاء الخاتم، فحتى التاجر أخبره بأنَّه يريد سعادته، و أنْ يتذكره كلما رأى فقيراً. و في هذا تلميح إلى أنَّ نعيم سيصبح غنياً و عليه مساعدة الفقراء. هنا راح يفكر في احتمال استغلال الخاتم كمشروع استثماري. سيواجه أولاً مشكلة كيفية حصوله عليه. من المؤكد لا أحد سيصدق القصة الحقيقية، مما يفتح أبواب التأويلات التي ستنتهي به إما كسارق، أو ذو علاقة مع جماعة ذات نشاطات إجرامية. و هذا سيجعله مُلاحَق قانونياً قبل اجتماعياً. و لو تخطى هذه العَقَبَة، عليه إستبدال الخاتم بالنقود، فيكون أمام خيارين،

الأول بيعه لتاجر نظامي، و استحالة هذا الخيار تكمن في عدم امتلاك أوراق ثبوتية تؤكد ملكية نعيم الشرعية للخاتم. فلا يبقى أمامه سوى الخيار الثاني المُتَواري خلف كواليس السوق السوداء الذي سيدخله معصوب العينين لأنَّه لا يملك أي صلة أو معرفة به، مما يجعله عُرضة للقتل أو السَّلْب أو ضحية كمين مُحاكٌ ببراعة من أجهزة الدولة. هنا اجتاحت ذاكرته مكالمات والده الهاتفية التي كانت تستمر ساعات و ساعات يُحادث فيها السيد إبراهيم أشخاصاً لم يسبق لنعيم مقابلتهم، لكنَّ أُذُناه وُسِمَت بمفردات كان لها نصيب الأسد من حديث والده، كالمقبرة، الدَفين، عدَّةُ كاهن، الزئبق الأحمر، عُمُلاتٌ أثرية، رَصَدٌ يَهودِيٌّ، كُتُبٌ تَاريخية، و تماثيل. لم يدفعه الفضول، و لو مرة واحدة، للبحث في تلك الأمور. لكنه كان متأكداً أنَّ موضوع الخاتم يدخل ضمن نطاقها. «عَلَّ أبي خبير في هذه الأمور. لَيْتَ الخاتم سقط بين يديه» قالَ لنفسه قبل إطراقه مُكْملاً حديثه الداخلي «لا، من الجيد عدم دخوله جعبة والدي. أنا مَوقن تمام اليقين أنَّ هذه الأعمال برُمَّتها تعتمد بشكل كامل على الحظ. و الحظ لا يعترف بالخبرة». حتى أباه من الممكن إنتهاء الأمر به قتيلاً أو خلف القضبان. شيءٌ خَفيٌّ سخر منه لأنَّهُ لا يُعاين إلا النصف الفارغ. دون أنْ يدري بأنَّ سُخْريَّتَهُ تلك قادت نعيم للقناعة التامة باختياره أفضل سُبُل التصرف إزاء الخاتم، فلو تمكن السيد إبراهيم من بيع الخاتم و جَرَت النقود بين يديه أنهاراً، فَسَتَعْصفُ بِلُبِّه نَشْوَةٌ، تفوق نشوة الجنس أضعافاً مضاعفة، توصلُهُ درجة مَن الأَنانية لا تتسع سوى لشخص واحد، يقوم معها بتأسيس مستقبل مَنْفِيٍّ من حساباته الأم و وَلَدَيْها. و قد يصل به الإجحاف

حَدَّ اتخاذ زوجة جديدة تَضَعُ أطفالاً يرى فيهم عهداً جديداً مُبَشِّراً بالخلاص، و اعتبار مَنْ قَبْلَهُم بقايا عهدٍ مظلم يؤمنُ فيه بحكمة مُحَرَّمٌ إتِّباعُها. أمَا و قد وَقَعَ القول، و أصبح الخَاتمَ مجرد ذكرى، فيكفيه الهيام في فراديس دارين. تأتيه كل يوم بأحاديث تداعب أُذُنَيْه كريش حمام يتراقص في سماء ربيع أزلي. تَشكو لَهُ غَيْظَ زميلاتها منها بسبب تفوقها الدراسي، يطلق العنان لابتسامته الماكرة «لا أؤمن برؤية الفتيات في الذكاء ما يدعو للغيظ، إنَّ ما يغيظُهُنَّ فعلاً هو جمالك». و في أوقات شرائها للمنظفات، تروح تَتَباهى بتفانيها الطوعي في الاهتمام بالمنزل و نظافته دون أي إجبار من والدتها. لا بل إنَّ أُمُّها كثيراً ما تطلب منها أخذ قسط من الراحة و عدم القيام بأي عمل. يتظاهر بالانبهار أثناء نظره ليديها «أمك محقة، فهذه الأصابع الغَضَّة لم تُخلق لتَعْيَى في أعمال النظافة». إحمرار وجنتيها ينتقل إلى إبتسامتها قبل إضافتها «و فوق كل هذا أسعى إلى تعلم الطبخ». يسند ظهره إلى الكرسي آخذاً نفساً عميقاً يُعَبِّرُ عن راحة عظيمة فيما يقول لنفسه «ستكون سيدة منزل من الطراز الرفيع». كَلَّمَتْهُ عن هَوَسها بالبحث في الأمور الماورائية، و إدمانها لأفلام الرعب. صُدِمَ و خرج سؤاله لاشعورياً «ألا تخافين؟». «من يخاف يفوتُهُ كل جَميل». أحَسَّ في إجابتها بشيءٍ خادشٍ للحياء خَشيَ معه التمادي في التحليل، فسألها مباشرة «كيف؟». زادت إجابتها في حيرته «تَغَلَّب على الخوف لتعرف كيف». أسهبت في بيان صفات عَمَّاتها و خالاتها، و من الأقرب إلى قلبها، و أيُهُنَّ لا تُطيق، و أبرَزُهُنَّ عَمَّتُها وِداد الَتي ما انفكت تقول، منذ كان لدارين سبع سنين، أنَّ ابنها ثائر سيكون زوجها المستقبلي.

و كلما تقدم الزمن تلاحظ ازدياد صرامتها و جدِّيَّتها في ذلك الطرح، و كأنَّها تحذر والديها من الإقدام على خطوة مُغايرة. لاحظت شروده ففرحت، لتخمينها بأنه خائف من فُقْدانها. لكن ما أصابه فعلاً لفحةُ بَرْدٍ شعر بها حين تذكر الدفء العائلي الذي تفتقده أسرته، فوالده مشاكله دائمة مع عائلته، أمَّا عائلة أمه فكُلٌّ مشغولٌ في حياته الخاصة. صُدمَت حين قال لها فجأة «لا تفرطي بها». ظَنَّتْهُ يقصد العمة وداد، و تحديداً عرض الزواج. و لم يُخْبِرُها أبداً بأنَّ العائلة هي مَقْصَدُه. دائماً ما كانت تأخذ الحيز الأكبر من الكلام. و يكتفي نعيم بالتعقيب و الهمهمة. حتى عندما أحَسَّ أنَّ مخزونها من الأحاديث قاربَ على الإنتهاء، و رأى في صمتها دعوة ليتحدث هو، راح يسألها عن أمور تَخُصُّها و كأنَّه يذكرها بأشياء نسيت تناولها. فسألها مرة عن لونها المفضل، كما استوضحها عن أصول عائلتها، و إذا ما كانت تسكن الحي منذ وقت طويل، و كيف قضت طفولتها، و أصَرَّ عليها بذِكْرِ مواقف مَرَّت عليها تاركةً أثراً في حياتها و شخصيتها، و لم ينْسَ تذكيرها بالخاتم و فضوله لمعرفة إذا ما كانت تلبسه. فأجابته بأنَّها تبقيه مُخَبَّأ لحذرها من اكتشاف أمره. ثم أطرقت صامتة. كان بإمكان أي أحد ملاحظة وجود كلمات في جوفها مترددة بنطقها. سألها «ما بك؟». بدا القلق عليها و هي تقول «يوجد حلم مزعج كثيراً ما يراودني...». انتظرت أنْ يسألها عَمَّا تراه في الحلم، لكنه بقي صامتاً محدقاً بكامل حواسه في صمتها. اعتبرت تلك الحالة مساوية للسؤال، فراحت تقول ساهمةً في الفراغ «أرى الخاتم ملتفاً حول عنقك كحبل مشنقة. إطاره مستقر على مؤخرة عنقك، حيث يقوم رجل بالقبض على

الحجر باذلاً مجهوداً شاقاً في محاولة نزعه من مكانه. دون أنْ ينتبه أنَّهُ بهذا الفعل يقوم بخنقك و جَرِّكَ على طول أرضٍ تكسوها العقارب». عادت من الفراغ ببطءٍ نحو عينيه «هذا كل شيء». ابتلع ريقه بصوت مسموع «ما معنى هذا؟». اكتفت بمَطٍّ شفتها السفلى في إشارة لعدم معرفتها. حَكَّ شعره قليلاً قبل أن يسأل «أهذا الرجل طويل و نحيف؟». «بعض الشيء». «أعيناه سوداء؟». ضحكت باستهزاء لطيف «معظم الناس عيونهم سوداء». سَرَحَ بعينيه قليلاً قبل أنْ يسأل مرافقاً السؤال بحركة من يده «أيوجد ندبة تحت عينه اليمنى هنا؟». عقدت حاجبيها مذهولة «أرأيت ذات الحلم؟». أحَسَّت بالألم يعتصر نبرته حينما أجاب «لم أحلم بأبي من قبل...» أسند خَدَّهُ على كَفِّه ناظراً لدارين بشكل مائل «و لا أظن من بعد». غَرِقَ في صمت عميق أخْرَجَتْهُ منه بسؤالها «لماذا يفعل والدك بك شيئاً كهذا؟». أجاب بضحكة ذات معنى فيما يُلاعب غُرَّةَ شعره «ربما يريد الخاتم». فكرت موشكة على إخباره بأنَّها مستعدة لإعادة الخاتم إليه. لكنها عدلت عن ذلك قائلة بإلحاحٍ شديد «إنَّكَ لم تخبرني بعد كيف حصلتَ عليه». صَفَنَ كمن يستحضر ذكرى جميلة ثم قال «لن تصدقيني». تَعَجَّبَت «ألهذا الحد؟». قال مؤكداً «بل و أكثر من ذلك». «سأصدقك حتى لو أَخبرتني أنَّكَ أتيت به من أحشاء حوت، يسبح على عمق ألف كيلومتر داخل محيط موجود في كوكب المريخ» بدت ملامحها تماماً كملامح والدته حينما تجبره على فعل شيء يُصِرُّ ألا يَفْعَلُه. و كمن يدلي بشهادة أمام محكمة، تحدث عَمَّا حصل مَعه منذ أخذه الراتب حتى عودته راكضاً للبيت، مُستثنياً من ذلك رؤى المرآة. لم تَدْرِ ما تقول، فاكتفى نعيم بالتعقيب

جُزافاً «أصدق الحقائق تَكْمُنُ في أعتى الأكاذيب». سألته باسمةً «ما معنى هذا؟». ضَحكَ قائلاً أنَّهُ لا يدري، فشاركته الضحك لتقول بعد ذلك «هذه أول مرة تتولى فيها دَفَّةَ الكلام...» ثم أضافت مُنَبِّهَةً بِسَبَّابَتِها اليمنى « ...منذ هذه اللحظة ستكون المُتَكَلِّم». قال و قد بدا عليه التثاقل من هذه المهمة «لكن...لكن ماذا أقول؟». قالت باحتجاج عَذب لا تتقنه إلا الإناث «قُلْ أي شيء. إنني لا أعرف عنك سِوى أنَّ اسمك نعيم. أما أنت فَبِتَّ تعرف عني كل شيء، و لربما أصبحت تعرفني أكثر من نفسي». قال و كأنَّهُ يرجوها التراجع عن فكرتها هذه «لكني يا دارين لا أُحْسِنُ الحديث». «سَتُحْسِنُهُ...» قالت بحزم « ...لكن فقط تكلم. تحدث. حدثني عن حياتكَ و عن عائلتك. صِفْ لي بيتك و شَكْلَ حَيِّك. أَسِرَّ لي بأحلامك و طموحاتك. حدثني عن مَدْرَسَتك و أجمل ذكرياتك. أخبرني إذا ما تَعْشَقُ نَسَمات السَّحَر و المَشْيَ تحت المطر. كلمني عن الحزن فتْنَةَ عيناك و عنَ الغموض يكسو مُحَيَّاك». خُيِّلَ إليه أنَّهُ أصبح الحبيبة، فيما تَقَمَّصَت دارين دور الحبيب. تنحنح مستعداً «اسمي نعيم...». و مذ ذاك الحين خَلا المنبر له. راح يجود بأحاديث تُغمُّها أكْثَرَ مما تُبْهِجُها. استرجع معها ذكريات ضبابية كانَ لأبيه فيها نصيب وافر من الثراء. «إذاً كُنْتَ تحيا في نعيم يا نعيم». «كُنْتُ صغيراً يا دارين، فلم أستشعر لذة ذاك النعيم». يذَّكرُ بوضوح الجلاء من ذاك البيت الرغيد لبيت تعكس واجهته البؤس القابع فيه. حَدَّثَها عنه، و عن الماء مُقيمٌ فوقَ الشارع الذي يُحاذيه، فيخشى منهُ إرتداء بنطال جديدَ. كَلَّمَها عن سَجْنِ والده و عن سَفَرَه. شكاوى أُمِّه الصامتة و بكائها المرير، تَخَلَّلَها فترة سعادة

جامحة جَهلَ مصدرها. أحْزَنَها برثائه لطموحاته المستقبلية التي ارتطمت بشَسْع نَعْل السيد إبراهيم. أخبرها بخوفه الشديد على أخيه إياد، لدرجة تَمَنِّيه لو لم يكن شيئاً مذكوراً فينجو مَرَّتان، من الحياة، و ما بعد الحياة. حَدَّثَها عن دراجته التي تحطمت، و ريشة رسمه التي سُرقت. كَلَّمها عن طَيْر داوى جناحه. و عن بَتْر قدم طبيب خالته المُقْعَدَة. يُكَلِّمُها مُنتَشياً بتذكر أحاديثها، بانت أثناءها كحمامة تَهْدُلُ تحملَه لعوالم ورديَة. دونَ علمه أنَّ كلماته تقتحم مسامعها كنعيق غراب يُنفيها نحو أكوان مظلمة فيها ما لا عينٌ ترى، و لا أصواتٌ تُسْمَع، ما أدى لانتفاضها ذات مرة مُحتجة «ألا تعرف أيّ جميل؟». «بلى». وقفت مُرْهفَةً سمعها لما سيقول. «رائحة إبْطَيْ والدي حينما كان يرفعني عالياً في الهواء لحظة عودته من العمل». غرقت في الضحك حاجبةً وجهها بكَفَّيْها قبل أن تقول ممازحة «حمار». بَهُتَت ملامحه فجأة. و أشاح برأسه نحو الأسفل كأنَّما تَلَقَّى صفعةً مُدَوِّيَةً. فيما شَحُبَت نَضارَةُ دارين، و باتت على وشك البكاء محاولة تبيان أنَّها كانت تمزح دون أنْ يُسْعفُها ارتجاف جسدها بذلك. لكن بَهْجَتُها عادت لها في النهاية بعدَ رَفْع نعيم لرأسه سائلاً بطريقة تَعَمَّدَ فيها السذاجة «ما اسم أنثى الحمار؟». الهُوَّةُ بينهما تتلاشى. و في كل مرة يشعران أنَّهما أقرب لبعض من ذي قبل. و نعيم بالذات جَرَفَهُ هذا الشعور بدرجة أكبر. حتى أنَّهُ فَكَّرَ في مرات كثيرة بأنْ يقول لها أُحبُّك، لكنه في كل مرة يقترب من لفظها تداخله قناعة مفاجئة بأنَّ تلك الكلمة مُبْتَذَلة لا تستحق كل هذا السؤدد المزدانة به. ثم يزداد قناعة بأنَّهُ، خلال الأوقات التي عايَشَها مع دارين، قد قَدَّمَ لها أكثر بكثير مما تُساويه تلك الكلمة،

فهو متأكد بعدم حاجَتَه لنطقها لتعلم دارين مدى أهميتها و مكانتها لديه. لا بل إنَّهُ في أحيانٍ كثيرة ينسى الموضوع الرئيسي لخلافه مع كلمة أحبك، فيُمْعِنُ التفكير في ذاتها محاولاً الغوص في أعماقَهَا، و الإحاقة بذلك الغَموض الذي يُغَلِّفُها. ثم يروح يتساءل إذا ما كان هُنالك تعويذة خَفيَّةٌ أُلْقِيَت بين أحرف هذه الكلمة قبل دَمْجِهِنَّ ببعضٍ. ليتبادر لذهنه بعد ذلك تجربة قولها لفتاة لا تتقن العربية فَيَرى هل ستعطي ذات نتيجة قولها لفتاة تتقن العربية. بعدها يمعن النظر في الأفق متدبراً كيف اكتسبت تلك الكلمة مفعولها، فيتخيلها تقطع شوطاً طويلاً عبر التاريخ لتصل إلينا بهذا التأثير الذي يُخْجِل وجنات الإناث، و يُهَيِّجُ قُضبان الذكور. و في النهاية يُذْعِنُ لبريق أحبك. يَعْتَرِفُ لها بامتلاكها من السطوة على القلوب ما لَا تملكُهُ غيرها من الكلمات. لكنَها كما أجمل الأشياء، لا تكمن لذتها إلاَ في تجربتها الأولى. فمتى ما نطقناها تنطفئ شعلتها، و يموت تلألؤها. فتصبح كغيرها من الكلمات لا وَقْعَ لها إلا كوقع احتكاك القطط بأكياس القمامة، الأمر الذي يزيد في تمرد نعيم بألّا ينطق تلك الكلمة أبداً. و في لحظة إرساء عواصف نفسه على ذاك القرار، تستدير دارين مُيَمِّمَةً شَطْرَ بيتها. فيكتفي نعيم بالتحديق في تراقص مؤخرتها على خُطى ممشاها. و مع كل رقصة، تتسع حدقتيه حتى بلوغهن أقصى درجات الإتساع، ليقوم حينها بتأنيب نفسه و لَعْنِ وَقاحته، دون أنْ يحول ذلك من خطف نظرة أخيرة قبل غياب رقصة مؤخرتها لتُطْرِبَ عيوناً أخرى. و مع توالي التحديقات و التأملات، يلاحظ نَعيمَ أنَّ رقص إليَتَيْها يستفحل إحترافاً و براعةً إلى حَدٍّ بات يؤمن معه بأنَّها ستصل إلى مستوى

يستحيل فيه إتمام رَقْصَتها إلّا بوجود شريك. و لطالما تَشَوَّقَ للظَفَر بدَوْر الشَّريك. لكن داريَن رفضت منحه مجد بلوغ ذاك المستوى، فَذاتَ ليلة مُقْمِرَة قَلَّ فيها الكلام، استدارت قاصدة المغادرة، و لم تكد تسير خطوتين حتى التفت إليه بسرعة ممسكَةً عينيه بالجرم المشهود. و كمربية أطفال تُوَبِّخُ طفل شقي راحَت تُؤَنِّبُهُ «ما هذه الخَساسة!. عليك الخجل من نفسك». ما كان يتوقع أبداً الوقوع في مثل هذا الموقف. لم يعرف ما يقول، فاكتفى بطأطأة رأسه متمنياً لو يَتَماهى مع الهواء فلا يُرى منه شيئاً. و رغم علمها منذ البداية بتحديقاته المستمرة، حتى أنَّها كانت تبتسم خلال مَشْيها و كأنَّ نظراته تلك تُدَغْدِغُها، إلا أنَّها لم تجد غير هذا السبيل لإحزانه قبل إفراحه. «أغلَب أبناء الحي يحاولون التقرب مني. لكني آثرتك عليهم لحضور ساطع في شخصيتك، فأرجو ألّا تُضَيِّعُ هذا الحضور بنظرات ليست من شيَمك». الغريب في الأمر، أنَّها، خلال كلماتها تلك، كانت تحرك كَفَّيْهَا صعوداً و هبوطاً على رُدْفَيْها بطريقة سافرة قد تخجل منها المومسات، دون علمها بتاتاً أنَّها، هي نفسها، تقف بتلك الوضعية. و من حُسْنِ حَظِّها أنَّ نعيم أيضاً لم تستمني عيناه برؤيتها، لأنَّهما كانتا غائرتين في الأرض حَرَجاً. و لم يَرْفَعَهُما إلّا بعدما قالت له بأنَّها سامحته، و كانت حينها قد أرخت ذراعيها على جنبيها، لتقول بعدها غايتها ببطء كأنَّها تخطو فوق حجارة متناثرة على سطح نهر «غداً...سأحضر...هدية» انعكاس ضوء القمر على ابتسامتها زاد من ألَقها «لك». لم يتحمس كما كانت تأمل «سيكون في الأمر مجازفة، قد يراك والدك و أنت تحملين الهدية». غَطَّت مسحة حزن وجهها، فأضاف «فاضتَ غرفتي

بهداياك الكثيرة. لم أعد أجد لها مكان. كل لحظة أراك فيها هدية. و كل حرف من كل كلمة في أحاديثنا هدية». لم تُوَلِّ اهتماماً كثيراً لما قاله «لا عليك من الموضوع. سأتدبر الأمر». هَمَّت بالرحيل، و لم يكن لنعيم أمام إصرارها إلّا قول «كما تريدين». و قبل استدارتها بقيت تنظر له مبتسمة، ففَهِمَها على الفور «سأمشي بجانبك، لتُحسني الظن». قام عن الكرسي، متوجهاً نحوها قائلاً لنفسه خَلالَ ذلك «يالسذاجتها .أستطيع استراق النظر خلال سيرها على طول الشارع». و بعد أنْ صارا خارج البقالة، و وَدَّعَتْهُ دارين، نظر يميناً فوجد طارق جالس عند أبعد زاوية من باب موقف السيارة، الذي يفصل بينه و بين باب البقالة جدار بسُمْك متْرَيْن، و كان الإكفهرار واضحاً على وجهه. وقف نعيم بمحاذاتَه «يبدو أنَّك كَشَفْتَني». رَدَّ طارق بنبرة دَلَقَ عليها عكورة مزاجه «لستُ مهتم. أعرف بأمركما منذ البداية». لم يُلْقِ كلماته كتهديد، كما لم يشعر نعيم بذلك. لكن طارق كان بإمكانه عدم ذكر الأمر، فيبقى نعيم مطمئناً بعدم قدرة أحد على ابتزازه. و من هذا المنطلق رأى في كلماته تهديد خفي لم يُعِرْهُ اهتمام، لعلمه بأنَّ طارق مُدَخِّن، و هذا الأمر بحد ذاته قد يودي بأبي طارق إلى السجن بتهمة القتل العمد. «إنْ كنتَ غيرَ مهتم، فلماذا تجلس بهذه الكآبة؟». «لا شأنَ لك»أجابَ و قد زادَ من حشر رأسه بين رُكْبَتَيْه. لمعت فكرة في رأس نعيم جعلته يقول بدهشة «طارق...» لتتحولَ الدهشة إلى بسمة يحيطها الترقب «تُحبُها؟». انتفض يعيد كلامه باستهزاء يخفي خلفه غيظاً قاتلاً «تُحبُها». راح يُقَهْقِهُ بطريقة أُجْبِرَ معها أحياناً على ثَنْيِ ظهره و حشر خواصره بَيديه فيما يُقاطع ضحكاته

بكلمات ساخرة قصده منها المودة و ليس الشماتة «يالَصغيري المدلل طارق...كم أهيم بك حباً يا طارق». يضحك و ينثر سخريته بطريقة لم يستطع معها طارق منع ضحكاته، التي كانت تصارع أحزانه على حب من طرف واحد، من الخروج. و بعد خُبوء مرحه قليلاً، راح يُعانق طارق من الخلف، مُحيطاً بطنه بيمناه وَ مُدَلِّياً يسراه من على كتفه الأيسر، محاولاً تقبيله من عنقه أثناء قوله «بإمكانك أخذها. لن أُقَدِّمَها عليك». فيما كان طارق على حاله من الضحك يُكافح للتَمَلُّص من أحضان نعيم، لينجح بذلك آخر الأمر و يصعد الدرج راكضاً نحو منزلهم قائلاً لنعيم و الضحكات لم تُفارِقُهُ «أقسم أنَّكَ مجنون. أقسم أنَّكَ مجنون». بعد بقائه وحيداً، مسح بعض الدموع التي سالت من عينيه أثناء حفلة الضحك تلك. تَفَرَّسَ في القمر و هالَته الساطعة محاولاً تخمين طبيعة هدية دارين، زجاجة عطر، حِذاء، محفظة جلدية، ساعة يد، هاتف محمول، جهاز تشغيل أغاني، مصباح يدوي، كتاب...و خلال استعراضه للهدايا المُحْتَمَلة داخَلَ خاطره فكرة أنَّ دارين قد تتعرض لتجربة شبيهة بتجربة الخاتم. و بما أنَّها لن تغادر منزلها فقد حصر امكانية انبثاق ذلك العالم خلال أحلامها فقط. يشطح نعيم في خياله «يا اللّه، هل من الممكن أن تهديني صولجان، تاج ملكة بريطانيا، بَقيَّةٌ مما ترك آل موسى، السهم الذي اخترق كعب آخيل، سوارَي كسرى...و فيما يجنح بخياله نحو الفضاء الخارجي، للحد الذي لن يهتم معه إذا ما كان قابَ قوسين أو أدنى، توقفت عجلة أحلامه عند احتمالية ألّا تهديه دارين ما ستحلم به. مما سيجعل مشكلته الأساسية تتمثل في عدم معرفته إذا ما حصلت

على هدية من العَدَم أم لا «إذا أهدتني هدية قَيِّمَة فلا مجال للتأويلات. لكني منذ الآن أراها تهديني هدية متواضعة، فتصبح إمَّا مُذنبة سيقت لها هدية ثمينة و لم تعطني إيَّاها. أو بريئة لم تَرَ حُلماً مَن الأصل. لكن كيف أحكم عليها ببراءة أو ذنب أجهل وقوع مُسَوِّغَهُ الأساسي؟...آه، ليتها تهديني مطرَقَة». في الأثناء جاء أبو طارق للبقالة لإجراء الجرد اليومي. و لَم يعد نعيم، منذ مدة طويلة، مُهْتَم بالأمارات التي تظهر على وجهه خلال قيامه بالعمليات الحسابية. فهو لم يكن ينظر له من الأساس، فقط كان يقف عند باب البقالة موجهاً أنظاره ناحية الطريق المؤدي لبيت دارين، متجاهلاً تماماً أبا طارق و نظراته المليئة بالتذمر و عدم الرضا، و التي تحولت في تلك الليلة بالذات لنظرات حقد و كراهية لو انتبه لها نعيم لَعَلِمَ أنَّهُ فَقَدَ أهَمِّيَّتُهُ هُنا.

أثناء استعداده للذهاب إلى البقالة، طلب منه السيد إبراهيم أخذ سُلْفَة من صاحب العمل. أجابه نعيم بوجوب إنقضاء ثلاثة أشهر ليَتَمَكَّنَ من أخْذ سُلَف، و هو لم يكمل بعد أسبوعه الثالث من شهره الثاني. «اخْتَلَق أي حجة يا أبله. لو كانت أمك صاحبة الطلب لبذلت قُصارى جهدك» قال ذلك و قد أمسك نعيم من مؤخرة رأسه، و راحَ يَشُدَّهُ للوراء مرات متتالية و يدفعه للأمام ضارباً إيَّاه في صدره، سعياً في تعنيفه. «سأحاول يا أبي. أُقْسِمُ بذلك» نجح ذلك الرد في تخليصه من قبضة السيد إبراهيم، إذ دَفَعَهُ بعيداً عنه «وَلَدٌ أحمق». ما كاد يخرج من البيت حتى تلاقت عيناه بعيون قطط الحي، فانفَلَتَ في البكاء. ذات الطريقة التي أمسكها به والده، كثيراً ما أمْسَكَ بها قطط الحي مدفوعاً بعاطفة عارمة.

❖❖❖❖❖

لم يستطع مداراة أثر البكاء في عينيه. باغته خوف أن يسأله أبو طارق عَمَّا ألَمَّ به. وجد البقالة مغلقة فأصبح هاجس خوفه حصول مكروه لأبي طارق. صاح من الأسفل «طارق...طارق» ليظهر بعد قليل أبو طارق من الشرفة، و يلقي بمفتاح البقالة، ثم يختفي دون قول أي كلمة. سلوكه حَيَّرَ نعيم. لكنَّ نسمة من ناحية بيت دارين ذَكَّرَتْهُ بأنَّه على موعد اليوم مع هدية، فتَناسى الأمر كلياً. تَلَهَّفَ لقدوم الظهيرة شاعراً بدُهورٍ طويلة سيَفْنيها منتظراً تلك اللحظة التي تَبْعُد ثلاث ساعات على أكثر تقدير، قبل اعتصار قلبه غَمَّاً ليقينه أنَّ الآونة المرتقبة لن تُعَمِّرَ سوى ثوانٍ مقتولة. قليلون الزبائن. تَعامل معهم بلطف يخرقه بين الفينةً و الأخرى بنظرة نحو رأس الشارع حيث المكان الذي تبزغ منه دارين. موعد قدومها يقترب. بات شبه متأكد أنَّها الزبون القادم. لكنَّ ظنونه خابت حين دخل رجل طويل، يرتدي طاقية شمسية، و تفيض عيناه بهدوء إلى حَدٍّ وَزَّعَتاهُ على باقي وجهه. حَدَّقَ فيه نعيم لأنَّها المرة الأولى التي يراه فيها، و لخوفه أنْ يطول به المقام لحين قدوم دارين. ألقى نظرة سريعة شملت جميع البقالة، ثم قال بنبرة رجل نبيل «لو سمحت، أريد كرتونة دخان». فتح خزانة كراتين الدخان مستغرباً، لأنَّها المرة الأولى التي يطلب فيها زبون كرتونة كاملة «يوجد كرتونة تحوي عشر عُلَب، و أخرى فيها عشرون. أيُّهُما تريد؟». أطرق مفكراً لبرهة «أريد العشرة». أخرج الكرتونة فيما عيناه مستمرة بإلقاء النظرات نحو رأس الشارع. أمَّا الرجل كان يُوَجِّهُ أنفه صوب الخارج يستنشق نسمات الهواء المنعش التي تتوغل إلى البقالة دون استئذان. ما أنْ وضع الكرتونة على الطاولة أمام الرجل، حتى أطلق هذا الأخير نظرة عدم تصديق نحو أحد الأرفف الشامخة على

يسار نعيم. لاحظ نظرته، فراح يحاول تخمين الشيء الذي أذهله بالتحديد، عَبْرَ تقليب عينيه بين محتويات الرف. أشار الرجل بإصبعه «أليس هذا زيت الشعر العالمي؟». أجاب نعيم «بلى». قال الرجل بنبرةٍ جمعت ما بين الصدمة و الإنشراح «لقد بحثت عنه في أكبر الأسواق و عند أمهر العَطَّارين دون جدوى». أحسَّ نعيم بزُهُوٍّ بالغ، فقال بابتسامة تَشُعُّ فخراً «بالرغم من تواضع البقالة، إلّا أنَّها تحوي سلَعاً لا تَقَلُّ أهميةً عن السلع الموجودة في المتاجر الراقية. فهناك...» و أشارَ لأقصى زاوية البقالة القابعة على يُسْراه «...يوجد نظارات شمسية ذات ماركات عالمية و بأسعار مُنافسة». جحظت عينا الرجل حتى كادتا تخرجان من محْجَرَيْهما «حَقاً؟». أجاب نعيم غَيْرَ مصدق إدخاله كل هذا التأثير في نفس الزبون «و كل الحق يا سيدي». قال الرجل بلَباقة «أرغب برؤيتهن من فضلك». قال خَجِلاً لقول الرجل من فضلك «بالتأكيد، بالتأكيد يا سيدي، سأُريكَ إياهن حالاً». كَلَّمَ الرجل أثناء خَطْوِه صَوْبَ النظارات «المشكلة أنَّ عددهن كبير. مما قد يضطرني لاسْتئذانك لتأتي...» النظارة التي طالَما تمنى شراءها لوالده، كانت يده في طريقها إليها، حينما توقف عن الكلام إثْرَ سماعه صوت إحتكاك شيء بالطاولة، أعْقَبَهُ وَقْعُ خُطى أقرب ما يكون للركض. التفت مُتَوَجِّساً، فلم يَجد كرتونة الدخان. و ذات الحالة وجد عليها الرجل. استاءَ لماَ رأى، و تمنى لو لم يُقدم الرجل على فعلته تلك قبل أنْ يُطلق سَاقيه للريح، و يَشْرَعَ بعملية اللحاق بالسارق. انحنى خلفه يميناً، فأبصر تَخَلُّفَهُ عنه بمسافة شاسعة أوْقَعَت في نفسه ألّا طائل من الركض. لكنَّهُ لم يتوقف، ليعتبر ما وقع في نفسه همزة من هَمَزاتِ الشياطين، بعدما شاهد عمره الفَتِيِّ يتفوق على فرق

المسافة، و يقربه من الرجل أكثر و أكثر. نَقَّبَت عيناه يمنة و يسرة بُغْيَةَ رؤية شخص يُعينُهُ على الإمساك بالسارق. و لَمَّا لم يَلُوحُ أحد، راح يصرخ «توقف أيها اللص». هو يعلم أنَّهُ لن يقف، كل ما أراده ملامسة صرخاته لجدران البيوت الصَّماء، عَلَّها تستجدي الأحياء الآمنينَ في جوفها بمساندته، لكن عبثاً، فأوقات الضَّرَّاء لا تَحْيا إلّا تحت ظلِّ الوحدة. الوحيد الذي استجاب لصرخات نعيم المغلولة كان السارق، لقد خَشيَ وصول جيشاً لنُصْرَة نعيم، أوَّلَهُ في عَمُوريَّة و آخره في بغداد، فأوْغَلَ يساراً حيث المنحدر المليء بالنتوءات الصخرية. تَبِعَهُ نعيم خائفاً الضرر على حذائه الذي لا يملك سواه، فركض بحذر، متجنباً الحجارة البارزة، و مبتعداً عن الفجوات المليئة بالنمل، و هذا ما أعطى للرجل أفضلية كَسْب بعضاً من المسافة. و مع اجتياز المنحدر، و العبور للأرض شبه الصحراوية، عاوَدَ نعيم الأمل بالقدرة على اللحاق بالرجل بل و تجاوزه أيضاً، لقد لاحظ أنَّ الرجل بدأ يتعب و سرعته تتباطئ، على عكسه هو إذ شعر بسرعته تزداد، و صحته في أحسن أحوالها. و مع تَحَوُّل ذاك الأمل إلى حقيقة وشيكة الوقوع، بدأ الهَلَعُ يتغلغل إلى نَفْسه، لقد نَسيَ تلك الأمنية البعيدة بعقد لقاء مع دارين في هذه الأَرض البعيدَة عن أعين و آذان الناس. كما أغْفَلَ أنَّ هذه القطعة شبه الصحراوية باعثة الكآبة في النفس، لَهيَ موقع مناسب لارتكاب جريمة قتل دون أي خوف من هتك الخَصوصية. و لأنَّ الرجل لم يحدجه بنظرة إحتقار، سَهَى عن معاينة جسده الذي لا يساوي جسد وفا أمامه أي شيء. تَبَلْوَرَت المعادلة في رأسه، فأثقلت قَدَمَيْه، و مَسَّهُ القُنوط، لإدراكه أنَّهُ ما كان ليُعطى موهبة الركض لولا أنَّهُ مُطارَد لا يملك حق الإلتفات لاسترحامِ المُطارِد الذي قد

يكون أبو طارق، السيد إبراهيم، دارين، السارق المُطارَد حالياً، أو حتى هذا الحجر الذي اختلط عليه الحق بالباطل، فقام بعرقلة نعيم رَدّاً على ريح أطارت طاقية الرجل كاشفةً عن صَلْعَة لامعَة لن تُنْبتَ من جديد لَو سُقيَت بكل زيوت العالم الطبيعية و الصناعيَة. آنَذاك لم يَجِد ريبَةَ في تَقَمُّص روح اوريليانو بويندِيا، بعدما تَبَيَّنَ له قُدوم العاصفة لنفيه خارجَ ذاكرة التاريخ، جسده لثوانٍ قليلة، جاهِلاً أنَّ مصيره أضْنى، لمَنْحِه فرصةً أخرى على الأرض.

❖❖❖❖❖

نظراتـه لا تتجـاوز خطواتـه. و بـين كل فينـة و أخـرى ينظـر لراحـة يده اليسرى حيث الجرح الطفيف، الشاهدُ على المُطارَدَة، يُوَاسيه بخَـطٍّ دَمْعٍ أحمـر. هكذا عـاد أدراجـه. لا يشعر بالعـار. و لم يتوانـى ببالـه، و لـو للحظـة، أنَّـهُ يَجُـرُّ أذيال الخيبـة ورائـه. كُلُّ مـا أحَـسَّ بـه هـي حيوانـات السـارق المَنَويَّة تحتفـل فـوق إلْيَتَيْـه، تمهيداً للولـوج إلى شـرجه، لتَتَسَـرَّبَ مـن هنـاكَ إلى كُلِّ جـزءٍ مـن جَسَـد أُغْتُصِبَـتْ قُـوَاهُ حتـى أصبـح كـوردة جوريـة منكمشـة علـى نفسـها في مواجهـة هـواء خريفـي. وَدَّ إصابـة الزَّمَـن بخلـلٍ مـا، يُبقيـه علـى حالـه يسـير إلى مـا لا نهايـة، فـلا يَصـلُ أيَّ وُجْهَـة أبداً. لم يتبـادر إلى ذهنـه الهَشِّ التفكير بأشـخاص، يُعانـونَ معانـاة تفـوق مُعاناتـه أضعافاً مُضاعَفـة، هُـم أوْلَـى بتلـك الأُمنيـة. فكيـف تبتسـم لـهُ و هـيَ حتـى لم تلتفـت لهُـم. بعـد بضـع خطـوات ألَفـى البقالـة علـى حالهـا، لم يتغير منهـا شـيء. مـالَ يسـاراً نحوهـا. و بعفويـة، جَنَحـت عينـاه شـرقاً لتَلوح أمامـه داريـن الـتي كان قد نَسـيَها في خضـام لُهاثـه المحمـوم. و كَبَتَـلات زهـرة في أول تَفَتُّحهـا بانـت نَضَارَتُهـا. كمـا لـو أنَّهَـا فتـاة لم يَرَهـا مـن قَبـل. تسـريحة شـعرَها تُخفـي مناسـبة خاصـة، إذ عَكَصَتْـهُ إلى الخلـف كذيـل حصـان، تاركَـةً غُـرَّةً قوامَهـا مجموعـة خُصُـلات تَجَمَّعَـت عنـد الطـرف الأيسـر مُنسـابَةً للجهـة اليُمنـى، لتَنْسَـدلَ مـن هنـاك علـى عينهـا متأرجحـة، فتُظهـرُ نذيـراً مـن حُسْـنَهـا، و تَحجـبُ الفائـضَ مـن سـحْرها. و مـن يُمناهـا يتدلى حبـلانِ أحمـرانِ صغيران يحمـلان كيسـاً ورقيـاً رُسـمَت الـورود الحمـراء علـى جميـع جَنَباتـه. حتـى لباسَـها أحَسَّـهُ حيـكَ بخيـوط مـن غير هـذا العـالم. و مـع هـذا، لم يُلـقِ لهـا سـوى نظـرة عابـرة. سـرعان مـا أدار وجهـه نحـو الشُـرفة صارخـاً بصـوت مقهـور تـكاد تُخالجُـه

الدموع «طارق...طارق». نفذت صرخاته إلى لُبِّ عظامها. و الدموع التي رفضت النزول من عينيه، وجدت سبيلها إلى عينيها. احتاجت برهة من الوقت لتستدير عائدةً أدراجها جَرياً إلى منزلها، دونَ إلتفاته لها مرة أخرى، مُفَوِّتاً أجمل رَقْصَة كان بإمكانه رؤيتها. ظهر طَارق من الشرفة قلقاً «ما الأمر؟». «هناك أمر مهم. تعال بسرعة» ألقى عليه الأمر كقائد كتيبة يُحادثُ جندياً تحت إمْرَته. استشعر طارق حصول مكروه، فلم تَسْتَفزُهُ نَبرة نعيم الآمرة، و نَزل مسرعاً للبقالة. و هناك رأى حالَتَهُ المُزْرِيَة. لم يجرؤ على سؤاله عَمَّا حدث، بَقيَ ينظر إليه إلى أنْ تكلم نعيم من تلقاء نفسه. «أهذا هو الأمر! ظَنَنْتُهُ أمر خطير. لا عليك يا صديقي، فالموضوع لا يستحق حتى التكلم فيه» كانت نبرته مليئة بالإستخفاف. حَدَّقَ فيه «أتظن أنْ هذا سيكون رأيَ والدك أيضاً؟». عاد القلق يكسو ملامح طارق «لا داعي لإخبار والدي». ضرب براحة يده اليسرى الجريحة على الطاولة بقوة «إيَّاك تكرار ما قلت». استغرب طارق الغضب المُتَوَقِّد من نعيم «هَوِّن عليك. ليس بالأمر المهم بقَدْر...». قاطعه نعيم فيما يُلَوِّحُ بيديه دون إنطفاء شعلة غضبه «بل الأمر مهم. إنَّهُ أهم من البقالة. و إنْ لم تُخبر أباك، سأصعد أنا لأُخْبِرَهُ». و بالفعل، قام بالمشي قاصداً الصعود لمنزل أبي طارق. لَحِقَ به طارق، و قد بدأت الشكوك تنتابه بأنَّ نعيم تحت تأثير مخدر ما، و أمسك به من الخلف محاولاً تهدئته «حسناً. حسناً. أنا صاعد لأخبره. انتظرني في البقالة». تباطأ تَنَفُّسَهُ السريع «لا تتأخر». خلال انتظاره لطارق أمسك علبة الزيت، التي أشار إليها السارق الأصلع، و قرأ كل رقم و حرف و كلمة مطبوعة عليها. سَمِعَ وَقْعَ

خُطى طارق الهابطة على الدرج، فأعاد العلبة مكانها. لم يكد يظهر من الباب حتى بادره نعيم بالسؤال «ماذا حدث؟». ملامح وجهه لا تُبَشِّرُ بخير «قال إنَّهُ سينزل حالاً». ما كان لنعيم حاجة في مواصلة الحديث مع طارق، بانَ جلياً أنَّ رأي الأب ناقَضَ رأي الإبن. إعْتَرَتْهُ رغبة في الجلوس، فغاصَ في الكرسي كابساً ظهره و مؤخرته قدر المستطاع. الوجوم مُخَيِّمٌ على كليهما كقائدي حرب ينتظران إعلان الهزيمة رسمياً. تذكر دارين فجأة. و فَكَّرَ في أنَّها ستظن بأنَّه قد أهملَها. تساءل إذا ما كانت انتبهت لحالته الرَّثَّة. و هل سيُعَكِّرُ ما حدث صَفْوَ علاقَتهما. و خلال ذلك لَمَعَت في رأسه فكرة جعلته يبتسم. سيكون طَارق رسولاً إلى دارين لتوضيح الأمر. «طارق...» لم ينطق الكلمة الثانية، إذ دخل أبو طارق فجأة. لم يَقُل أي شيء. فقط اتجه مباشرة صوب ابنه، و صَفَعَهُ صفعةً مُدَوِّيَةً ارتعد منها نعيم إلى حد شعوره بحاجة ماسة للتبول. «لماذا هذه الصناديق مُبَعثرة بهذا الشكل...» التفت مرتعباً نحو الصناديق، فقام والده بركله، موصلَهُ صَوْبهن دون تكليفه عناء المشي، فيما هو مستمر بالصراخ فيه «رَتِّبهن بسرعة». اتجه مسرعاً نحو الكرسي، فقام نعيم و كأنَّه جالس على جَمْر. جلس أبو طارق دون توجيه أي نظرة أو كلمة لنعيم، معتبراً إيَّاه سلعةً لا روح فيها، كباقي سلع البقالة. «امسح الغبار. و املأ الثلاجة. سيأتي مندوب العصائر بعد قليل. تحرك بسرعة أيُّها البطيء». رغم أنَّ جميع أوامره وكلامه مُوَجَّه لطارق، إلّا أنَّ نعيم لم يكن غبياً لمعرفة من المقصود. حتى أبو طارق كان موقن تمام اليقين بعلم نعيم أنَّ كل هذا الغضب مصبوب عليه بواسطة طارق. اكتفى بالتحديق، لا يدري كيف يَرُدُّ. لم يتوقع

أبداً هذا الفعل من أبي طارق. أمَّا طارق كان ينظر بين الفينة و الأخرى إليه و كأنَّه يسأله أين ذهب كل الغضب الذي واجهتني به منذ قليل. و ما هي إلّا لحظات حتى وصل مندوب العصائر. ذهب إليه أبو طارق مباشرة، و راح يتحدث معه. و حين فتح المندوب باب الثلاجة، صَرَخَ في ابنه «جَهِّز نفسك لتتأكد من سلامة الصناديق، و مطابقتها للفاتورة المطبوعة». وقف نعيم على بُعْد خطوات من أبي طارق و المندوب. و بالرغم من وضوح حديثهما بالنسبة لأُذُنَيْه، إلّا أنَّه لم يتمكن من سماعهما بشكل واضح كما لو كان يستمع لهم وسط ضجيج سوق مليءٍ بالصخب. و قد كان المندوب يخطف نظرات مستغربة نحو نعيم، حتى أنَّه أراد استفسار أبو طارق عن الأمر، لكن هذا الأخير أدرك ما يجول بخاطر المندوب، فقام بحدجه و كأنَّه يقول له لا شأن لك، مما جعل المندوب يكتفي بالصمت خوف ثورة أبي طارق، و لا يعيد النظر لنعيم أبداً. القهر و شعور مُخْزٍ بالإذلال استشرى فيه بشكل شنيع. أراد التحدث، فلَم يقوَ علىً تحريك لسانه. رغب بالمشي لأبي طارق و محادثته كرَجُل، لكنَّهُ صُدمَ بفَقْده السلطة على قدميه فقط بإتجاه المكان الذي يشغله أبو طَارق. وَ في لحظة هموم المندوب بالمغادرة، ابتسم أبو طارق في وجهه و قَدَّمَ له هدية، ذات النظارة التي طالما هَفَا لإهدائها لوالده، و التي كان سيُريها للرجل، ليَعْلَمَ آنَذاك، نادماً، أنَّهُ ما كان عليه العودة للبقالة أبداً، فالذين يجدون أنفسهم مُنْكَسرين وَسْطَ أرض شبه صحراوية عليهم الإتجاه غرباً إذا ما أرادوا النجَاة. أمَّا الشَّقيُّ نعيم فقد عاوَدَ الكَرَّةَ شرقاً طمعاً في رحمة بحث عنها أثناء إجالَته النظرة الأخيرة في البقالة، أبو طارق، طارِق، و للمرة

الأولى أُمُّ طارق إذ رآها تمسح براز الطيور عن حافة الشرفة. شَبَكَ يديه خلف ظهره مُوَلِّيَاً إيَّاهُ لكل ذلك ناوياً العودة للبيت من ذات الطريق التي دَلَّهُ عليها أبو طارق، و التيَ طاردَ، أو طارَدَهُ، عليها السارق قبل قليل. أيْقَنَ تمام اليقين أنَّ نظرات أبي طارق لم تتجه نَحْوَهُ إلّا الآن. ما كان يجهله هو طبيعة هذه النظرات، أهيَ نظرات دهشة، عدم رضى، أم حقد. وَدَّ لو يستطيع الإلتفات، لكنَّهُ ظَلَّ يصطدم بحقيقة عدم مُلْكيَّته حق الإلتفات. تمنى كثيراً لو يصرخ أبو طارق بإسْمه، لكنَّه لمَ يَسَمع شيءَ، عَلَّ آذانُهُ صُمَّتْ. و لَرُبَّما لسان أبا طارق أَصابه الشلل. و في بُقْعَة من بُقَع هذا الشرق الذي جافاه، لم يَنْسَ أنَّ دارين تَقْبَعُ في إحدىَ زَواياه. يتساءل عَمَّا حَلَّ بها. أتبكي أم تضحك، أم ما زالت تُقَلِّبُ الأمور في ذهنها. و مُحْتَمَل ألّا تفكر بالأمر إطلاقاً. و ماذا عن الهدية التي انتظرها على أحَرِّ من الجمر، هل تَلَقَّاها أم كانت مُقَدَّرَةً منذ البداية للمندوب. و الأطفال و الحلوى التي كان يُعطيها لهم مجاناً، أسيستمر أبا طارق بالسير على نهجه، أم سوف يُطالبُ الأطفال بإرجاعها بعدما يبلغون سنَّ الرشد. يَشْعُرُ بمُعاناته تَتفاقم إلى حد أنَّها هي نَفْسَها ناشدت الَراحة، فنَظَرَ يساراً ليجد أنَّهُ أصبح بمُحاذاة الأرض شبه الصحراوية. هُناك، لم يهتم للعائلات التي خرجت لاستنشاق الهواء النقي. و لم تَرْدَعُهُ براءة و ضحكات الأطفال. كما لم يخجل من الفتيات، اليافعات و البالغات، الباردات و المُتَلَهِّفات. وقف أعلى المنحدر. ثم فَتَحَ أزرار بِنْطَاله. ليقوم بعدها بإنزال لباسه الداخلي و إمساك رأس ذَكَره، ما بين رؤوس إبهام و سبابة يده اليسرى، مُطْلقاً العنان لمثانتَه في التعبير عن مكنوناتها. خرج بَوْلُهُ بدايَةً مُصْفَرَّاً إصفِراراً شديداً، لِيَتَفَتَّحَ بعد ذلك لَوناً فَلَوْناً، حتى أصبح

شَـفَّافاً صافيـاً نَقيَّـاً، و كأنَّ فَـرْجَ نعيـم اسْـتَحال عَيْـنَ مـاء قـد تُزيـلُ صفـة شـبه الصحَراويـة عـن قطعـة الأرض هـذه، و لـو بَعْـدً حـين.

❖❖❖❖❖

نَوْمُهُما آسر، تَوَسَّدَ فيه إياد صَدْرَ والده. جلست الأم هادئة مكتفية بمراقَبَتهما. فُتحَ الباب. دخل نعيم بخفَّة لا تُحْتَمَل. خفَّتُهُ الهَشَّة أغْرَتْ والَدته بمُنادَمَته. لم تتركه يَتَجاوَزَهَا، إذ أمسكت يُمناه، و سَحَبَتْهُ للخلف مُجْلِسَة إيَّاه على فخذها الأيسر. قَبَّلَتْهُ قريباً من مُلتقى الشفتين، ثم قالت مباشرة بنبرة لم يعرف معها إذا ما كانت تسأل أم تُخبرُه بعلْمها بالأمر «تَرَكْتَ العمل». لم يتكلم، فقط أراح رأسه على كتفها مستمتعاً بارتداد أنفاسها الساخنة، الخارجة من منْخَرَيْها، عن خَدِّه. أراها الجرح رافعاً راحَتَهُ اليسرى قبالة وجهها كطفل يُري لأمه شوكة غائرة في يده. قامت بمُناغاته «كيف حصلت عليه؟». «عَثَّرَني حجر، فَوَقَعْتُ». «يا لَهُ من حجر مُغَفَّل» تَناغَت بذلك تزامناً مع انسيابها مستلقية جاذبَةً نعيم للإضطجاع بجانبها. أسْكَنَ رأسه على صدرها مُسْتأنساً بنبضات قلبها التي راحت تسكب السَّكينة في أُذُنه حتى غَرِقَ في نوم أدْرَكَها قَبْلَهُ. رائحة دخان أيقَظَت أنفه قبل عَينيه. السيد إبراهيم يُدَخِّن. يُوَزِّعُ نظراته ما بين نعيم و السقف، الأول حينما يسحب الدخان إلى رئتيه، و نصيب الثاني عندما يُخْرِجُهُ. سرعان ما اعتدل نعيم في جلسته حالما أبْصَرَ والده، مُفْسِداً عليه لذة خيالات ما بعد الاستيقاظ. ثلاث تحديقات كانَت نصيب كلاهُما، السقف و نعيم. حينما أنْهى التحديقة الثالثة في السقف، و ظنَّ نعيم أنَّهُ في طريقه للحصول على تحديقة رابعة، سألَهُ والده فجأة و بكل هدوء كما لو كان يسأل كم الساعة «ماذا حدث؟». أخبره بما كان من أمر السارق مُراوغاً بسَرْد تفاصيل المُطارَدَة في الأرض شبه الصحراوية، فَتَجَنَّبَ الحديث عن خوفه من الإمساك بالسارق في

تلك المنطقة النائية. كما لم يذكر أنَّ الحجر لربما استجاب لخوفه، فقام بعرقلته لإعطائه الحُجَّةَ الكاملة بأنَّهُ بذل أقصى مجهوداته. قال فقط «تَعَثَّرْتُ بحَجَر، فأوْقَعَني». «لماذا كانت ردة فعله بهذا الشكل؟» سأل خلال إطفائه السيجارة في المنفضة. تَوَجَّهَت أنظاره نحو عملية عَدْم السيجارة «لا أدري. أعتقد أنَّهُ أراد أي ذريعة لإنهاء خَدَماتي، دائماً ما كان يشكو إنخفاض المبيعات». بدا غارق في تفكير عميق، فبانت سعادة أعمق على وجه نعيم خلال قوله بحماس كبير «هل ستذهب لمحادثته في البقالة؟». خرج جوابه كمن ينفي عن نفسه جريمة قتل «لا، لا...أنا لا شأنَ لي. فليتدبر كل شخص أموره بنفسه». أصابه الذهول، السيد إبراهيم خائف. بدا ذلك جلياً بعد ذهابه مباشرة إلى النافذة يسحب الهواء بعنف كما لو داهَمَتْهُ نوبة ربو. رَفَضَ تَقَبُّلِ تلك الحقيقة، والدي خائف، أبي جَبان. أراد الإعتذار لكنَّ والدته لم تسمح له، إذ دخلت رفقة إياد يحملان الأكياس. «الناس في السوق كطوابير النمل». سألَها «هل كان المبلغ جيد؟». كانت تُفَرِّغُ الأكياس رفقة إياد «نعم. أخبرني التاجر أنَّ لي حَظَّاً أُحْسَدُ عليه، فسعر الذهب اليوم هو الأعلى خلال الموسم». هَرَعَ إليه إياد يُريه حذاءَهُ الجديد. راح يُقَلِّبُهُ بين يديه سائلاً زوجته خلال ذلك «متى يوم ميلاد نعيم القادم؟». توقفت عن تفريغ الأكياس ناظرةً إليه باستغراب «لماذا هذا السؤال؟». قال و قد انتهى من فحصِ الحذاء و راح يُرَبِّتُ على رأس إياد «فقط أخبريني متى». فَكَّرَت قليلاً «اليوم الأحد ...» عَدَّت على أصابعها «يوم الأربعاء يُصادف يوم ميلاده». ذهب للغرفة، و بَدَّلَ ملابسَه، ثم خرج من البيت. فيما كانت زوجته تراقبه بنظرات مرتابة،

لتقول لنعيم بعد خروج والده «يبدو أنَّ ذاك الأحمق سَيَزُجُّ بكَ في الجيش». قال بغضب «لا تَشْتُمي أبي». حَدَجَتْهُ «و ماذا قَدَّمَ لك من خدمات يستحق الثناء عليها؟». قال بعدما ثَبَّتَ نَظَراته بنَظَراتها «على الأقل لم أسمع منه أصوات شهوانية خلال سَفَره. و بالتأكيد لن يقدر على إصدارها خلف القضبان». جَحَظَت عيناها و اتَّسَعَت حَدَقَتَيْها، كما لو سمعت بعينيها بدلاً من أُذُنَيْها. نظرت سريعاً لإياد، فَخَفَّ ارتباكها قليلاً لأنَّهُ لم يسمع قول نعيم. سَرَت نحوه تقول بنبرة مرتجفة «ما هذا الذي تَفَوَّهت به يا نعيم؟». أرادت مسك يده فسحبها بعيداً «لا تلمسيني». حاولت التهدئة من انفعاله «كما تريد، كما تريد. فلنتحدث في الغرفة الأخرى». نظر لإياد لبُرهة، ثم مشى للغرفة الأخرى. مَشَت أمه بجانبه محاولة وضع يدها على كتفه، فأزاحه عن مرمى يَدها. دخلت بعده مُغلقَةً الباب. وقف بعيداً عنها «تكلمي من بعيد. لا تقتربي مني». نظَرت له مغمومَةً «ما بك يا بني؟ قبل قليل كنا نائمين بجانب بعضنا كمحبوبين» بدأت تمشي صوبه خلال كلماتها تلك، فيما نعيم يكرر «لا تقتربي مني. لا تقتربي مني» بنبرة تَخْفُتُ حدَّةً حتى صَمَتَ تماماً مكتفياً بالاستدارة نحو الحائط مُعطياً ظهرَه لأمه التي أصبحت قبالَتُهُ. عَلِمَ من صوتها أنَّ الدموع بدأت تسيل من عينيها «أتدري خَطورة ما قلت؟ أتعلم ما قد يحصل لو سمع والدك ذلك؟». قاوَمَ لعدم الإتيان بأي حركة أو فعل و كأنَّه تَطَلَّعَ لإتقان الدور الذي أراده له أبو طارق، ظهيرة هذا اليوم، غافلاً عن عاطفة الأم التي تُشَقِّقُ الماء من مسامات الحجارة الصَمَّاء. جذبته لأحضانها مُحيطةً بطنه بيُمناها و مُدَلِّيَةً يسراها من على كتفه الأيسر. حاول التملص

منها بمجهود أخف من الذي تجذبه به. سَكَنَ بعدما راحت تتكلم قريباً من جانب وجهه الأيمن بطريقة غدت معها شفاهُهَا تحتك بوجنته كلما تحركت «كيف سَهُلَ عليك ذكْرُ ذلك؟ أنسيت يوم أخذتك معي للسوق لشراء معطف لي، و عندَما رأيتَ دراجةً، عَرَفْتُ أنَّها أعجبتك دون أنْ تخبرني بذلك. أتذكر يومها ما حصل؟...» بدا الضيق على نعيم، ضيقٌ منه هوَ و ليس منها « ...لم أشترِ المعطف، و اشتريت لك الدراجة. و الرجل الذي سَبَّكَ، فضربت بحشمتي و حيائي عرض الحائط. خلعت حذائي و ضربته به على وجهه تحت أنظار الناس المُتَجَمْهِرة. و وقت رفضت أكل التفاحة لتدعها لي ظَنّاً منك أنَّها الأخيرة. فصَدَّقْتَني بأنَّها ليست الأخيرة. و للآن تَظُنُ أنَّها لم تكن الأخيرة. و المئة ورقة تُخَبِّؤها داخل حذائك، تجهل أنِّي كل صباح أُدْخلُ يدي هناك خوفاً من لسعة عقرب أو لدغة أفعى. لمَا أخبَرْتَنَي بذلك يا نعيم». اشتد بكاؤها أثناء كلامها. تساقطت دموع عينها اليُسرى لتسيلَ على وُجْنَته اليُمنى. هيَ أقسى درجات البكاء، سَفْكُ الدموعَ من مُقْلَة شَخْصَ لتُراقَ علَى وُجْنَة شخص آخر. عندها فشل في متابعة الدور الذيَ أراده له أبو طارق. شعر برَجَّة في بطنه صعدت إلى صدره، لتتسامى صَوْبَ عينيه قطرات ندى انهَمَرت تزامناً مع استدارته لأمه يعانقها و يجهش بقوة. لو كان الاعتذار ينفع، لاعتذر بكل لغات العالم، المنقرضة، الحَيَّة، و التي ستولد مستقبلاً. لو كانت القُبَلُ ذات جدوى، لَقَبَّلَ كل خلية من خلايا قَدَمَيْها. لكنَّ ذلك لن يُصْلِحَ الشرخ. سيخسران القدرة على مُحاكاة دور الأم الرؤوم و الطفلَ المدلل. ستعجز عن توجيهه و الظهور أمامه بمظهر الواعظ الحكيم. وصمة عار ستبقى حائلاً

بينهما . في كل نظرة، حركة، أو كلمة سيشعران بها . و إنْ تظاهر أحَدُهُما بتَجاهُلها، فإنَّ الآخر سيُلاحظ، ليَعودا سَوِيَّاً يَتَجَرَّعان مرارتَها . ما داما على قيد الحياة، و ما دامت الذاكرة سليمة، فلا أملَ في عودة المفردات إلى معانيها . وحده الموت، أو النسيان الجارف القسري سَيَمُدُّ يداً حانيَةً ناسيَةً من غَيَاهب ذاكرة واعية داميَة. و حتى يتنازل الموت بالقدوم، أو فقدان الذاكرة بالحلول، فإنَّ العاطفة السائدة بين الأبناء و الأمهات، لن تجد مكاناً لها بين نعيم و أمه، ليَحُلَّ مكانه تفاعل نادر الوجود أدركته الوالدة منذ لحظة ارتجاف نَبْرَتها «ما هذا الذي تفوهت به يا نعيم». أمَّا الابن فلم يُدْرِكْهُ إلا بعدما سمع الصوت، دائم السخرية، يَنوحُ لأوَّلِ مرة «لِمَ أعْلَمْتَها بِعِلْمِكَ بالأمر، لِمَ نَبَشْتَ ذاكِرَتَها يا نعيم».

❖❖❖❖❖

كفترة استجمام، عاش يَومَي الإثنين و الثلاثاء. يستيقظ صباحاً يراقب مقصد الطلاب إلى المدرسة، يحاول سَبْرَ أغوار كل واحد منهم. و أحياناً يُداخلُهُ فُضُولٌ طُفَيْلِيٌّ لمعرفة أحلامهم و طموحاتهم. و نادراً ما يتمادى في الأمر، فيرغَب برؤية الحياة بأعيُنهم. أخاه إياد هو الوحيد الذي كان يشيح بنظراته عنه و يتجاهلَه تجاهلاً تاماً. يعود للبيت، يُمارس بعض التمارين الرياضية، ثم يُطالع بعض الكتب التي استأمَنَ عليها عَمُّهُ نائل أباهُ قبلَ سَفَره. أحياناً يستهويه كتاب، فيغوص بقرائته. و أحياناً أخرى يَقْضيها يُقَلِّبُ صفحات الكتب، يقرأ صفحتين من كتاب، و صفحة من كتاب آخر، و هكذا. و في الحالَتَيْن يبقى بين أحضان الكتب حتى الظهيرة. يعود للشارع يراقب عودة الطلاب لبيوتهم. يأمَلُ رؤية دارين بينهم، رغم علمه أنَّ مدرَسَتَها أبعد ما تكون من هنا. و حينما يرى إياد يعودان سوياً للبيت. حتى و إنْ لم تنتهي أفواج الطلبة الآئبين، و تبقى إستحالة رؤية دارين بينهم واردة. يشاهد التلفاز، أو يبقى ساهماً يفكر في مساعدة والدته بإعداد الغذاء. و عند إعتدال الشمس يشارك أقرانه لعب كرة القدم. و حالَ المغيب يعود بعد زمن قليل من عودة والده الذي خرج منذ السابعة صباحاً خلال هذين اليومين. في يوم الإثنين استمر غيابه حتى المغيب. و في الثلاثاء عاد للبيت و عاوَدَ الخروج خَمْسُ مرات، كان أثنائها يأخذ أوراق و يعود بأوراق، تاركاً زوجته في حيرة و قلق شديد مما ينوي فعله بنعيم الذي كانت تتألم لفقدانه شيئاً فشيئاً، كحبات رملٍ تتسرب من بين أصابعها. وَلَكَم كانت رغبتها جارفة في البَوْح لهُ بهواجسها و مخاوفها لولا عدم تفاعله معها بأي شكل، مما جعلها تظن بأنَّهُ

مُنْتَش بالقطيعة، دون أنْ تَعْلَمُ برغبته الأكبر و لو لخطف نظرة إليها، و لَكنَّهُ، كَما هيَ، قَدَّسَ جدار وصمة العار التي لا حقيقةَ لها كما لحَقيقَتهما. أرادَت إستعادته بأي طريقة. ظَلَّت تفكر يائسة إلى أنْ لمحَت بصَيص أمل بَرَقَ من مناسبة عيد ميلاده المُصادف يوم الأربعاء، و تحديداً ظهيرَتُهُ حيثُ كانا وحيدين في المنزل، و كانَ نعيم قد انتهى لتَوِّه من الاستحمام، و لا يستر جسده العاري سوى مَنْشَفَة أعلاها أسْفَلَ سُرَّته و أسفلها أعْلى ركبتيه. دخلت الغرفة دون طرقٍ الباب. أحَسَّ بخجَل شديد أجْبَرَهُ على تَوْليَة ظهره لها. جلست على حافة السرير، أمسكت ساعدَهُ تُديرُهُ للوقوف قبالَتها خلال قولها بدلال «أأنت خَجِلٌ مني؟». بَقيَ مُطْرقاً إلى الأرض. لا تجرؤ عيناه على مقابلة عينيها. دفعت لهُ بعلبة مُغَلَّفة بورق هدايا «هدية عيد ميلادك». مَسَكَها بين يديه برهبة أكبر من الرهبة التي تَمَلَّكَت دارين حين دفع لها بعلبة الخاتم. لامَسَت رغبته للكلام منتظرةً بلهفة سماع صوته، لكنَّهُ لم ينطق. عليها تحفيز تلك الرغبة. وضعت باطن كفِّها الأيمن فوق ظاهر كفِّه الأيسر القابض على أحد جوانب العلبة «ألَا ترغب بقول شيء؟». أحَسَّ برعشة سرت من يَدها إلى يَده. ارتجفت شفتاه خلال قوله «أريد الإعتذار...». «لا تعتَذر...» قاطَعته مسرعة «كلانا لن يعتذر. إذا ما بقينا نشعر بوجود ما يُعَكِّرُ صَفوَنا، فإنَّ الإعتذار لن يفيد بشيء. كل ما علينا فعله هو تذكر الأشياء الجميلة، لا تجاهل نظيرتها القبيحة. لأنَّنا مهما حاولنا تجاهلها سيزداد رسوخها ثباتاً. الذكريات السيئة لا يُؤَججُّها إلا الكَدُ في سُلْوانها. هي لا تُحارَب. و لا تُقاوَم. و إنَّما تتلاشى و تضمَحِلَّ بالطوافَ بين الذكريات المُشرِقَة. وقتَ عودتك

لهَمَساتي الدائمة في أُذُنكَ بأنَّكَ أهم من حياتي. و اشتمام رائحة بابونج ساخن أعددته بَيديك أملاً في شفائي من الزُكام. و حينَ تتغلب على خوفك من الماء بين يَدَيَّ أُعَلِّمُكَ السِّباحة. و تَلَذُذي بمذاق حلوى عَفنَة أهدَيْتَها لي يوم ولادة إياد. و احتماؤك بي فراراً من كلبٍ غَرَزَ أنيابه في ذراعي. تَعْلَمُ أنَّنا نملك جنة ذكريات مَليئة بالجمال و البهاء، لا يشوبُها سوى شوكة ممنوعٌ اقتلاعُها. لمَ نترك الجنة بكامل حسانها، و نجهد في التفكير بانتزاع الشَوكة. فَلْنَدَعَها و نَمْرَحُ في رياضَ الجَنة. و لنَتَأَمَّلَها لندرك كم هي فاتنة باقي الأزهار و الأنهار». أرفقت آخر حديثها بتحريك يدها على خَدِّه بنعومة زادت من تأثير وَقْع كلماتها في نفسه، حتى ما عَاد يفهم كُنْهَ المشاعر التي راحت تَتَشَكَّلَ داخله. رفع رأسه ببطء، ليجد تفسير تلك المشاعر مرسوم على مُحَيَّا أمه. سِحْرٌ يحتارُ فيه ملوك الجآن، أغْراهُ فيها. وَسامَةً و زُخْرُفٌ أشْعلا الفتنة في قلبه، و ألْهَبا الشهوة في باقي أوصال جسده. لاحظت الأم ذلك التغير بريبة، ارتجافٌ في اليدين امتد إلى الصدر العاري مُنَبِّهاً لحدوث تسارع مفاجئ في ضربات القلب. لتُذْهَلَ بعد ذلك بنظرة عينيه المليئة بالإشتهاء و الإفتتان، تلك النظَرة التي طالما كَدَّت لإيجادها في عيني زوجها، تَبْتَهِلُ ألّا تكون هي تلك التي تراها الآن في عيني ابنها. و حتى هذه اللحظة كانت مقتنعة باستحالة ما يجول في خاطرها، إلى أن رأتهُ يُرَطِّبُ شفتيه بتمرير لسانه عليهما في دعوة صريحة لشفتيها لامتحان جودة رطوبَتهما. استمرت على عنادها بوجود خلل ما لم تَعيه بعد، فأنزلت رأسَها، محاولةً تصفيةَ ذهنها و لَملَمَة أفكارها، لتُبَاغَتَ هناك بمنطقة منتفخة أسفل المنشفة سرعان ما مَيَّزَتْها، فأعادت

رفع رأسها، بسرعة أكبر من التي أنْزَلَتْهُ بها، و قامت بصفع نعيم، على ذات الخدِّ الذي كانت تداعبه، صفعةً رقيقةً، كصَفْعَة عشيقة لعشيقها آذنةً له بالقبلة الأولى، قبل إنصرافها من أمامه مُخَلِّفَةً إيَّاهُ يضحك لإستيقاظه على تفاهة ما فَكَّرَ به، فيما ضحكت هيَ رجاءاً في نجاح عملية رتقِ الشَّرْخِ المُشين. و أثناء مغادرتها الغرفة قالت له «حين ترتدي ملابسك، تعال لمساعدتي في المطبخ» و مع آخر كلمة التفتَتْ له باسمةً، لتتفاجأ بإنزاله المنشفة، قاصداً إرتداء ملابسه، و تلمح قضيبه مُتَدَلٍّ بينَ فخذيه. سرعان ما أشاحت نظرها مُسائلةً نفسها باستهجان إذا ما كان ذاك الصقر هو ذات العصفور الذي كانت تحاولَ الإمساك به في بعض الأحيان لتَنْغير طفْلها. و في طريقها إلى المطبخ، لم تستطع مقاومة تخيل نفسها تجَامَع نعيم، فقامت بإغماض عينيها و هَزِّ رأسها مُقصيَةً ذاك الخيال بعيداً قبل قَوْلها بصوت مسموع تناهى لمَسامع نعيَم، فقال مثلما قالت «استغفرَ اللّه العظيم».

❖❖❖❖❖

رآها تُقَطِّعُ البصل بخفة و مهارة. تأمل ملياً السكين في يدها تُحيلُ الكتلة الكبيرة الواحدة لقطع صغيرة متناثرة. ابتلع ريقَهُ، ثم تَصَنَّعَ التذمر «ألَا نستطيع إعداد غذاء واحد دون بصل». ردت عليه ممازحة بنبرة مستنكرة «ألا يكفيكَ شُعورَهُ بأحزاننا، فيجعلنا نذرف الدموع مَصُونينَ من أسئلة الناس الفضولية». نظر بانبهار «يالهذا الولاء العظيم!». مرت فترة صمت تبادلا فيها النظرات. جالَ بعدها بنظره لما حوله «ماذا ستكون مهمتي؟». رفعت سكيناً كبيراً في وجهه مبتسَمة «ستقطع الدجاج». «دجاج...» قال مستغرباً « ... ماذا سَتَعُدِّينَ؟». «وجبتك المفضلة». قال فيما يتوجه لأخذ السكين «إنَّها ليست مصادفة، أليس كذلك؟». «والدك أمرني بذلك». راح يُعاين حجم الدجاج بين يديه «لا أفهم شيء». قالت و قد انتهت من تقطيع البصل، و بدأت برَشِّ التوابل عليه «أعتقد أنَّنا اليوم سنعرف ما كان يُخَطِّطُ لك خَلال اليومينَ الماضيين». توقفت عما تفعل شاردةً بأنظارها «أخاف أنَّ ذاك...» نظرت إليه فجأة عاضَّةً على شَفَتها السفلى متنبهة في اللحظة الأخيرة للخطأ الفظيع الذي كانت علَى وشك ارتكابه. وجدته ينظر لها باسماً و كأنَّهُ يفكر فيما كان سيفعل لو شتمت أمه أباه. بعد ذلكَ، ضَحكا سوياً. «لماذا لا ترغبين بذهابي للجيش؟» سألها على حين غفلةَ. استشعر غَصَّةً عميقةً في نبرَتها «لأنَّ ذلك ليس ما كنت أحلم به...» أخرجت نفساً مُحَمَّلاً بخيباَت الأمل « ...أتدري يا نعيم. قبل ولادتك، كثيراً ما كُنَّا نَتَسامَرُ أنا و والدك. نحتار في طرق تدليلك صغيراً. و نفكر بما سنجعلك عليه كبيراً. كان يقول والدك أنَّهُ يريدك طبيب تُعالج المَعوزين بلا مقابل. كنت أعارضه و أقول أنَّكَ ستصبح طَيَّاراً تجوب أرجاء العالم، فتشعر بالحرية المطلقة. كُنَّا ساذَجَيْن، نظن أنَّ الحياة ستمضي وِفْقَ إرادَتِنا. لم نفكر بالمصاعب، و تَقَلُّباتِ الأحوال

التي ما أنْ بدأت حتى بدأنا معها نُقَدِّمُ التنازل تلْوَ التنازل. لنجد أنفسنا في نهاية المطاف قد تنازلنا عن كل ما حَلمنا به ذات يوم، دون أنْ نحقق منه أي شيء. و نرضخ، فوق ذلك، لواقع لم نظنهُ موجود إلّا بقصص التاريخ الحزينة. و ها نحن اليوم، نعيش كل لحظة على أمل قدوم الأفضل في اللحظات القادمة، رغم إيماننا الكامل بأنَّ كل لحظة تنقضي لَهيَ أفضل بكثير من التي تليها». ساءَهُ الغَمَّ الذي انتاب أمه، فحاولَ مواساتها «أمي أرجوك، لا حاجة لنا بهذا الكلام. إنَّهُ بلا فائدة». «أردت فقط أنْ أعتذر لك يا نعيم. في كل ثانية أفكر بالإعتذار ألف مرة لك و لإياد. لأنكما أنتما من ستدفعان ثمن أحلامنا التي خَطَّطْنا لها بقلوبنا و أقصَيْنا منها عقولنا. متجاهلين أنَّ الحياة لا قلب لها. اعتقدنا أنَّنا نفكر بكما، لكنَّنا أدركنا متأخرين أنَّنا لم نكن نفكر إلا بأنفسنا. كان الخيار متَاح أمامنا بالزجِّ بكُما في هذه الحياة من عدمه. أمَّا أنتم، فلم نترك لكم أي خيار. جئتم رغماً عنكم و دون إرادتكم. و بلا إرادتكم أيضاً سَتَتَحَمَّلُونَ مسؤولية أخطائنا. لم نقنع بعيش المرارة و القهر لوحدنا، فأبَيْنا إلّا أنْ تشاركونا فيهما. هذه هي أحلامنا لكم. و هذا سيكون إرثُنا لكم. أرجوك سامحني يا نعيم. سامحني يا بني». طَيْفُ دارين جالَ ببالِه أثناء تدفق كلمات أمه. فَكَّرَ في نفسه «من المؤكد أنَّ أبي و أمي كانا مثلي أنا و دارين ذات يوم. أيُعْقَلُ أنْ يكون هذا مآلُنا يا دارين؟». وقف أمامها مُسَيِّراً يده على شعرها «صدقيني يا أمي، لن يرمي بي أبي للجيش». عانقته هامسةً في أذنه «أتمنى ذلك».

كان السيد إبراهيم يأكل بِشَهيَّة كبيرة «مالَكَ لا تأكل يا نعيم؟ أليست هذه وجبتك المفضلة؟». عادَ من شروده متناولاً لقمة صغيرة من الطعام واجَهَ صعوبة في ابتلاعها «بلى...بلى يا أبي. تذكرت فقط عمي نائل، لأنَّها وجبته المَفضلَة أيضاً». أوقف في الهواء قطعة دجاج كانت في طريقها إلى فمه «عَمُّكَ نائل!» أعاد القطعة إلى الطبق. صَفَنَ قليلاً، ثم ضحك ناظراً لزوجته «أعتقد أنَّ أمك أسَرَّت لكَ ببعض مخاوفها. و لا أرى لعمك نائل نصيب من شرودك». حاولت إختلاق ملامح الإحتجاج، لكنَّها ما لبثت أنْ ضَحكَت مُقرَّةً لزوجها بصحة إعتقاده. أمَّا نعيم فَلم يُحاوِل إظهار أي تَعبير. لَكنَّها حينما ضحكت نظرت له، فقام بالضحك معها مادَّاً لها بقطعة دجاج التَقَمَتْها بأسنانها ناصعَة البياض.قال السيد إبراهيم، و قد تراجع إلى الخلف و بَدا أنَّهُ اكتَفى من الطعام «ما استغربه هو ذكرك عمك نائل بالتحديد! و بذكرك له فقد أرَحْتَني من عناء التمهيد للخبر الذي أحمله لك...» جال بنظراته بين زوجته و ولديه «ستذهب له. غداً ستسافر يا نعيم». كثيراً ما فشل في تصور ملامح وجه مناسبة تليق بلحظة عثوره على الكنز الذي لن يجده أبداً، و ها هي الآن أنْسَبُ الملامح تنظر إليه مؤكِّدَةً أنَّ الواقع أحياناً قد يأتي بما يعجز عنه الخيال. «تمزح؟» سألت الأم واجمة. «سنسافر معه؟» تَبعَها إياد مباشرة. وَحْدَهُ صاحب الشأن بَقيَ صامت. جَحَرَهُم السيد إبراهيم «ما أصابَكُم؟ يجب أنْ تفرحوا لهَذا الخبر». أحاطت الأم نعيم بيسراها و كأنَّها تحميه من أحد مُتَوَجِّهٌ لضربه «لا. ابني سيبقى معي. لن يعيش غريب». نظر لها نظرة معلم لطالب ميؤوس من نجاحه قبل أنْ يقول باستهزاء «لن

يعيش غريب...» ثم أضاف مباشرة بمنتهى الجدية و بصوت أخذ يعلو شيئاً فشيئاً «سيعيش غريب حينما يعمل مدى حياته كالدَّواب، ليجد أنَّهُ في نهاية المطاف لم يحقق أي شيء». ضاعفت من إحاطته بيدها كما لو كانت تريد عَصْرَهُ «على ألأقل سيبقى قريباً مني». غضبه، الذي كان في طريقة للإستعار، هدأ بعدما رأى إياد يقوم بمعانقة أمه .تَطَلَّعَ لثلاثَتهم بإشفاق، ثم انضم إليهم آخذاً مكان إياد بعدما خَدَعَهُ بتقبيله، ليُزيحَهُ بعد ذلك من مكانه هازئاً. شَدَّ شعرها كما يَشُدُّ شعر طفل صغير لمُلاعبته «لن يكون وحيداً، نائل سيعتني به». مالت بعيداً عنه صوب نعيم «ليس بقَدَري». شعر أنَّهُ أخطأ حينما أوقف ثورة غضبه «لا تُشعريني أنَّك تُهيلينَ عليه القُبُلات طوال اليوم. أليس أنت من تَحَمَّسَ لعمله في البقالة مدة إحدى عشرة ساعة. و كان يخرَج قبل ساعة من بداية عمله. و لحين وصوله البيت تكون قد انقضت ساعة أخرى. مما يعني ثلاثَ عشرة ساعة...» صَفَرَ صَفْرَةَ ذُهول أرفقها بتَصْفيقَة و كأنَّه اكتشف ذلك الرقم تَوَّاً « ...ثلاث عشرة ساعة! يريد النوم. كم سيبقى من اليوم. ساعتين. ثلاث. و بالتأكيد لن تَبْقِ سارحةً في عينيه طيلة هذه الساعتين أو الث...». قاطعته بعدما ترقرقت دموعها «ما هكذا تُحْسَبُ الأمور، و إلّا لَبَكَيْنا على الأحياء قبل الأموات. فكم من حَيٍّ تنقضي سنوات لا نراه خلالها، و لكن إذا جاءنا خبر موته حَزِنَّا و بكينا عليه. حسب منطقك سيكون مات منذ آخر مرة رأيْناه فيها ...» أضافت بعدما زادت التصاقاً بنعيم و كأنَّها تحولت لتحتمي به بدلاً من أنْ تحميه «و تقول عني تحمست لعمله! من الذي جعله يترك المدرسة، و ألقى به إلى الشارع قاضياً

على كل فرصة في...». عَصَرَ رأسه ممتعضاً أنَّهما لا ينطلقان من نقطة تفكير مشتركة «فَلْنَنْسَ العمل. النقود. كم يتقاضى هنا. مئتان ورقة نقدية. هل هُنَّ مُتَناسبات مع المجهود الذي يبذله. لا ...» يسأل و يجيب نفسه، و قد بدأ بتوجيه تركيزه لنعيم أكثر من زوجته « ...أنا متأكد أنَّهُ يتقاضى عُشْرَ ما يستحقه فقط. فهو إذاً كآلة، تنتج كثيراً و تستهلك قليلاً. و هكذا أنت يا نعيم، إنَّك بحاجة لصيانة و زيت كالآلة. و هذا المبلغ الضئيل هو بديل الزيت و الصيانة. أمَّا هناك...» سرحت عيناه مبتسماً و كأنَّه يُغْبِطُ نعيم « ...هناك سيتقاضى هذا المبلغ خلال يومين أو ثلاثة على أكثر تقدير. سيشعر أنَّهُ إنسان يبني و ليس حيوان يَحْرُث. سيُخالط أُناساً صادقين لا يلعبون دور الملائكة للوصول إلى غاياتهم الشيطانية. و الفتيات...» توجهت أنظاره بالكامل لنعيم، فيما بَان ثغره عن ابتسامة واسعة، قبل انتقاله للجلوس بجانبه، على الجهة المُقابِلَة للأم. فأصبح نعيم في الوسط، على يساره ذراع أمه تجذبه، و من يمينه لسان والده يصب العسل في أذنه « ...الفتيات يا بني ستُصْعَقُ لرؤيَتهنَّ. جمال فاتن و أرواح مرحة. رغم أنَّهُنَّ بسيطات لا يَعْرِفْنَ التَّكَلُّفَ. و الأهم من كل هذا مُتَصالحات مع أنْفُسهنَّ قبل تصالحهن مع المجتمع. هنا يوجد فتيات قد يقفن ساعة أمام المرآة. يُسَرِّحْنَ شُعورهن، يَنْمصْنَ حَواجبهن، يَضَعْنَ اللون تلْوَ اللون على شفاههن، خُدُودهن، جُفُونهن، و أظافر أيديهن. هذا عدا عن العدسات اللاصقة البَعيدة عن الغايات الطبية. و في بعض الأحيان تجد تناسق غريب عجيب بين الألوان، فترى بُكْلَةً في الشعر بنفس لون رباط الحذاء، و حزام الخصر بلون أحمر الشفاه، و هناك

بعض البناطيل يقومون بطباعة كلمة على مؤاخراتها، تأكد أنَّ لون هذه الكلمة سيتوافق مع خُصْلَةَ شَعْرٍ صُبِغَت بذَاكَ اللون دون بقية الشعر. و حين تخرج إلى الشارع تفتعلُ ألفَ مشكلة إذا ما قام شاب بمُعاكَسَتها، أو نظر لها بشهوانية. بعد كل ذلك لا تريد لأحد النظر لها أو التحرش بها. ما هذا الجنون! قل لي برَبِّكَ يا نعيم أهذا إنسانٌ سَوِيٌّ...» زوجته تنظر له مستغربة سرعته و حماسته في الكلام كأنَّهُ لا يصدق نُطْقه لهذا الحديث « ...هناك يا بني الأمر مختلف. أنا لم أرى، عملكَ نَائل أخبرني. الفتاة لا تنظر في المرآة لأكثر من دقيقة. و بعضهن يُعَدِّلْنَ شُعورهن في سيارات الأجرة بواسطة مشط صغير. و مع هذا هُنَّ أجمل لمعرفَتهن أسرار الحياة. يُدْرِكْنَ أنَّ الجمال في الابتسامة. في إلقاء التحية. لا في جعل الوجه لوحة رسم و إبقائه عابساً طوال اليوم. هذا بالنسبة للفتيات، أمَّا النظام...». شَدَّت نعيم إليها مُحْتجة «كل هذه المحاضرة و ستحدثه أيضاً عن النظام! لا تستمع له يا نعيم. أنت لست صغير ليَغْسل دماغك بهذا الش...». «غسيل دماغ!» قاطعها مقطباً حاجبيه. «نعم، غسيل دماغ. إنَّك تُجَمِّلُ له الصورة هناك. أتريده أن يصبح كأخيك نائل الذي لم يعد يطيق العودة إلى هنا. أعجبه الرَّخاء هناك، فنَسيَ أهله و أصله هنا، حتى صار ينظر لهم بتكبر و ازدراء. لا ينقضي أسبوع على قدومه حتى يبدأ بلعن اللحظة التي قرر فيها العودة». بسمة الخصم الذي لاحظ ارتكاب عدوه لزَلَّة لم يفطن لها، ظهرت على وجه السيد إبراهيم «أسمعت يا نعيم؟ أعجبه الرَّخاء هناك. إذاً أنت يا عزيزتي لست قلقة على غُرْبَة نعيم، و إنَّما خائفة من تحسنَ حاله إلى حدٍّ يحتقر معه ماضيه».

شَـرَدت برهــة، ثـم قالـت بنـبرة تنضـح بعـدم الإقتنـاع «أنـا لم أقصـد هـذا. ما قصدتـه...». «لا تُجادلي على باطل. لقد اتَّضَ...» قاطَعَها. «أنت مـن تُحا ...» قاطَعَتْهُ. «أنا أعْلَ...». «لا تفكـر إلّا ...». « ...يبقـى هنـا لكـي...». « ...تَديـن». اختلـط كلامهمـا ببعضـه. و لم يعـد هنـاك أي حديـث مفهـوم. فقـط كلمـات مُتَراشَـقَة مـن هنـا و مـن هنـاك. «غبيـة...». «تسـتقوي بالشـتا ...». « ...تَقْبَـلُ الأولا ...». « ...نَيّـتُ بهـم...». فكـر إياد في البكاء لإيقافهم عن ذاك العته الصبيانـي. فيما كان نعيـم بينهـم يُشَـدُّ حينـاً لليمـين و يُجْـذَبُ أخـرى نحـو اليسـار، تصطاد عينيه تلك الكلمات التي ترمق فيها أدنـى قدر من الصحـة. و بعـد تفكـير عميـق ألهـاهُ عـن آلام كَتفَيْـه، تجـرأ علـى النظـر لأمـه «أمـي، أبـي علـى حـق...» جَفُلَـت كمـاَ لـو تَلَقَّـت طعنـة مـن الخلـف، بينمـا أرخـى السـيد إبراهيـم ذراعـه، عـن سـاعد نعيـم، معتـدلاً في جلسـته، مع بدايـة ارتسـام بسـمة النصـر على شـفتيه. الصاعقـة التي هَـوَت علـى رأسـها، لم تُثْنـه عـن إتمـام كلامـه « ...السـفر أفضـل مـن الجيـش». جاهـدت للتماسَـك سـائلةً بحشـرجة تجـاوزت أنهـاراً مـن الدمـوع بـين جبـالٍ مـن الحـزن «إجـراءات السـفر تأخـذ وقتـاً طويـلاً، فكيـف سيُسـافر غـداً؟». أجـاب بنـبرة لا تَشـي بانتصـاره أبـداً «الزئبـق الأحمـر. لطالما سَـخرتي من سَعْـي و أحلامـي. أولئـك الرجـال الذيـن انتهـت آمـالي بالوصـول لمرتبتهـم، هـم مـن سـاعدوني و سَـهَّلوا الإجـراءات. علينـا ألّا نخسـر أحد، فلكُلٍّ دوره. تعرفـت عليهـم لنخوض في ميدان لم نخـرج منه سـوى بالـكلام. فإذا بأفعالنـا تظهر في ميدان آخـر لم يخطـر ببـالي أبـداً». أردفـت و هـي علـى نفـس الحالـة، لا يتحـرك فيهـا شـيء عـدا شـفتيها، و أصابـع يدهـا اليمنـى المرتجفـة

اللواتي لا ينقصهن سوى لُفافة دخان، لإتمام اللوحة المطلقة للإنهيار «و بما أنَّهُم جعلوا من الإجراءات المُعقدة، بسيطة جداً. فلمَ لم يساعدوك طول ضائقتنا المالية؟». في الحالات الطبيعية، كان هذا الأمر كفيلاً بإنهماره عليها بالصفعات. لكن الآن لن يقدر إلّا على سماع السؤال ثم الإجابة بكل هدوء «لأنِّي أعجز عن كسر السلسلة التي تبقي ظهري منتصباً. هُم قدموا لي خدمة، و سأدفع ثمنها عاجلاً أم آجلاً. ياللأسف يا أم نعيم، أتسألينني مَدَّ يدي للناس؟». أخفضت رأسها بعدما أحست بفداحة سؤالها، ثم قالت غير قادرة على منع دمعة من النزول «و أخوك، ما كان قوله؟». نظر إلى نعيم مبتسماً «كاد أنْ يطير من الفرح. أخبرني أنَّه حلم يتمنى تحققه من كل قلبه. و قبل أنْ تسألي، فإنَّ العمل مضمون و مناسب. و لربما يكمل دراسته هناك». لم يعد هناك ما تقوله، فقد حاكَ السيد إبراهيم شبكته بمنتهى الحرَفيَّة و الدقة. وَقَفَت. «إلى أين؟» سألها زوجها. أجابت ببرود «سَأَغسل الأطباق». أشعل سيجارة. نظر لإياد، فوجده عاد لإكمال طعامه. التفت نحو نعيم ليراهُ قد سبقه بالتحديق فيه. و بعد بعضٍ من النظرات الصامتة، سَأله بحماس حاول إخفاؤه مُراعاةً لأمه «سأسافر بالطيارة؟». «تعال» قال و قد فتح ذراعيه كمن يستعد لاحتضان طفل صغير. توجه إليه، فقام بضم رأسه إلى صدره تحت أنظار إياد الممتلئة بالغيرة «سأشتاق لك كثيراً». فكر طويلاً قبل قولها من عدمه. يعلم إن لم يَقُلْها فستبقى شوكة في حلقه تكدر صفوَ عَيْشه «أكثر من أمك». رغب بغوص رأسه في صدر والده، كما تمنى الغوص، قبل ثلاثة أيام، في كرسي أبي طارق. و فجأة فتح عينيه كأنَّه تذكر

شيئاً مهماً. شعر به الوالد «ما الأمر يا نعيم؟». نظر له «أبي...». أومأ برأسه في إشارة إلى أنَّه يسمعه. بدا عليه التردد، فقال والده «تكلم لا تخف». «أريد توديع محمود» قال برجاء. عارض بنبرة جازمة «لا. لا أريد لأحد معرفة أنَّكَ مُسافر». شرع يقرض ظفر إبهامه الأيمن «لن أخبره بأمر السفر. سأتظاهر فقط بزيارته». أطرق قليلاً «لا مشكلة لدي. لكن خذ إذن أمك أيضاً». ردَّ مبتسماً «و إذن إياد أيضاً». التفت نحو إياد الذي كان يجرع العصير بصوت مسموع «إياد، أتسمح لي بزيارة محمود؟». «و نَعَمْ هناك أيضاً». ضَحكا قبل خطف نعيم نظرة سريعة لوالده و الذهاب للمطبخ حيثَ أمه. راقبه يتوارى خلف الباب بحسرة و كأنَّه يراقب غياب شمس لن تشرق مرة أخرى، و لولا إصبع إياد الذي مسح دمعته لَمَا شعر بها أبداً. «أمي، سأذهب هذه الليلة لتوديع محمود. أتسمحين لي بذلك؟». لم يسمع جواب. وقف بجانبها يهز ذراعها مخمناً أنَّها غارقة في أفكارها، فإذا به يُصْعَقُ لقولها «لا تكلمني». «ماذا هناك؟». وضعت الطبق جانباً مرتكزة بيديها على طرف حوض الغسيل الذي بقيت أنظارها مُصوبة نحوه «تخليت عني بكل سهولة...» صمتت لبعض الوقت «أنت غبي» ارتفع حاجباه قبل إضافتها ناظرة له بتَحَدٍّ «كوالدك» لم يكد يبتلع الصدمة حتى قالت بسخرية «السفر أفضل من الجيش» شَدَّت أذنه اليمنى «من قال لك أنَّك كنت مُخَيَّراً بين السفر و الجيش. كانت الخيارات أكبر من ذلك، إمَّا الشقاء برفقتي، و إمَّا الرَّخاء بدوني...» أنزلت يدها ناظرة له بأسى «...و اخترت بكل سهولة الرخاء بدوني». قال و قد بدا عليه ضيق شديد «و هل ترضين أنْ أحيا بشقاء!». «سأرضى

بالعيش معك...و لو في الجحيم». جلست على كرسي المطبخ الوحيد، و بكت مخبئةً وجهها بين يديها. وضع يده على رأسها «لم يغادر صدى كلماتك المطبخ بعد. من المؤكد أنَّ قلبك هو من يبكي و ليس عقلك. حدثتيني عن ندمك لإقصاء عقلك في الماضي، و ها هو الحاضر يُعيدُ لك الكَرَّةَ لتختاري الخيار الصحيح. و مع ذلك تُصرِّينَ على إتِّباع قلبكَ. لتعودي بعد عدد من السنين تشتكين كما شَكَوْتي ليَ اليوم. لمَ تَعْتَزمينَ السير في نفس الدائرة؟ الخط المستقيم دونَ غيره نُمَيِّزُ فيه البداية من النهاية». زادت حدة بكاؤها «لا أستطيع التفكير بك إلا بقلبي. ليس لعقلي القدرة على إستيعاب مدى حُبِّي لك». راقَبَها بحُرْقَةٍ عَجزَ معها عن قول أي شيء، فاكتفى بمعانَقَتها كما لم يعانقها من قبل. وددت لو أختم هذا الفصل بالشكلِ التالي...سارت بيدها على شعره، ثم أرجعته إلى الخلف ممسكةً إيَّاهُ من ذراعيه، تريد طبع صورته هذه في ذاكرتها إلى الأزل. بدأت بالتمعن في أظافر أصابع قدميه المقصوصة. ثم صعدت نحو ساقيه، فركْبَتَيْه قبل فخذيه. لم تُطل التمعن في تلك المنطقة التي لم تبارحها صورة إنتفاخها هذه الظهيرة. عند بطنه اتَّسَعَ مدى أفقية نظرَتها، لأنَّها مسحت الجزء السفلي من بطنه رفقة كَفَّيْه، و بذات الطَريقة كان الأمر بالنسبة لجزء البطن العلوي و الزندين، المرفقين و الحجاب الحاجز، إضافة للعضدين و الصدر. أمَّا الكتفين فقد حُشرا بنظرة واحدة رفقة الرقبة. و بوصولها للذقن استعملت يُمناهَا، لتثبيته بين الإبهام و السبابة. و عند الشفتين تَمَنَّت لو يمرر لسانه عليهن. و في حركة المنخرين وجدت ملاذاً من تأمل الأُذُنَيْنِ. و مروراً على العينين، توقفت. غاصت

عميقاً فيهما، حتى رأت إنعكاس صورتها في بؤبؤيه، فأدركت صواب رأي نعيم ظهيرة هذا اليوم. هيَ لم تَرَ تَجَلِّي حاجباها على عَرْش عينيها إلّا الآن. و ما لاحظت مَن قبل انسياب أنفها ببهاء قد يُبَخِّرُ الماء إذا ما سال عليه. و تساءلت مندهشة منذ متى كانت شَفَتَاها مُكْتَنِزَتان بهذا السِّحْرِ الأَخَّاذ. نعيم كان مُحقاً و وَجَبَ عليها الإعتذار دون كلام. وضعت يُسراها أعلى مؤخرته تزامناً مع قَبْض يُمناها على أسفل شعره قبل دفعه لأحضانها غارزةً شفتاها في شفتيه، دافعةً بلسانها قدر المستطاع داخل فمه حتى خاف تبادل صوتَيْهما فيما عيناه مفتوحتان على وسْعَيْهما ما بين لَذَّة مُحَرَّمة و صَحْوَة مُخَدَّرَة. أمَّا الأم فلم تسمح لأي مشاعر بإختراقها آنذاك، كانت فقط تدفع جسدها نحوه، و تجذب جسده نحوها و كأنَّها تُناشد تلك الخطيئة صَهْرهما معاً و إعادة تَشكيلَهما من جديد في كينونة واحدة. و لم تدفعه بعيداً عنها إلّا بعدما سمعت إياد يقول لوالده ضاحكاً و بصوت يقترب شيئاً فشيئاً «سأختبئ في المطبخ»...لكن، بما أنَّ خاتمة من هذا النوع سَتُدَغْدِغُ حَفيظَتُكُم باطنياً و تُثيرَها ظاهرياً، عدا عن تُهَم و إنتقادات، أترك لكم الإجتهاد في استنْباطها، سَتُهيلَها عَلَيَّ، فإنَّني أستَميحكم عذراً باعتبار النَّصِّ، المبدوء من (وددت لو أختم هذا الفصل) و الذي سينتهي بعلامة النقطة القادمة، غير مكتوب أبداً. و حينَ جَفَّت دموعها، حاولت تصور شكل الحياة بعد سفر نعيم الذي غَرِقَ في التفكير بطريقة يتمكن فيها من اقتناص فرصة أخيرة للإختلاء بدارين.

❖❖❖❖❖

بعد امتلاء أنفه بعبق رائحتها العَطرة، خَجلَ من نظافتها. نظر حيث غرفة المعيشة وَجلاً، ثم جازَفَ بارتدائها. وقف أمام والده «أنا ذاهب». انغماسه التام في مشاهدة التلفاز، سمح بكلامه دون نظره «انتبه لنفسك». إلّا أنَّ أنظاره سرعان ما اتجهت صوبه، بعدما سمع ملاحظة إياد المشكوك في صحتها «حذائي الجديد أجمل من حذائك الجديد». أصابه الحَنَق، لقد ارتدى ملابس و حذاء السفر. فكَّر بنَهْره، أو صفعه قبل أمْره بخلْعهن. لكنَّه تَرَوَّى بعدما رأى رجاءاً في عيَني نعيم أشبه بأمَل سجَين، مُلْتَفٌّ حبل المشنقة حول رقبته، بقدوم العفو عنه. شعر بانفطار في قلبه و ندم، لعدم شرائه حذائين بدلاً من حذاء «إنَّهُنَّ مناسَبات تماماً». تَمَلَّكَهُ الارتياح، فسأل «ألَا يبدو المعطف صغيراً بعض الشيء؟». تأهبت الكلمات على رأس لسان والده للخروج قبل أن تسبقه زوجته «نعم، إنَّهُ كذلك. و القميص لونه غير متناسق مع البنطال. و كلاهُما لا يَليقانِ بالحذاء الذي يوجد أنواع كثيرة أجمل و أزهد سعَراً منه». نظرا لها كمن ينظر لطفل تكلم في مهده، ثم نظرا في بعضهما و ضَحكا ملءَ أشداقهما. أعاد السيد إبراهيم النظر فيها بطريقة لا تجوَز أمام الأولاد «السذاجة لا تُفارقك حتى و أنت تَتَحاذَقين...» نظر سريعاً لإياد و نعيم قبل إعادة نظره إليها «...نعيم سيخرج حالياً. تَعْلَمينَ لو كان إياد سيخرج أيضاً...» غَمَزَها أثناء قوله «... ما كُنَّا سنَفْعَل». ضحكت من جرأته مغطيةً بيديها أذني إياد «ما هذا الذي تقول؟» نظرت لنعيم و قد بدت مُحرجةَ منه «أتسمع ما يقول والدك!». ابتسم لوالده «معه حق». قَهقَهَ الوالد بمرح صبياني ضارباً كَفَّهُ بِكَفِّ نعيم قبل إمساكه من ذراعيه قائلاً له

برجاء «خذ إياد معك». جحظت عينا الزوجة التي لم تحرك يديها عن أذني إياد، كما جحظت عينا نعيم «لكن...». «لكن ماذا؟ خذه معك لبيت خالك». لم يأمَنْ أنْ يمنعه والده هو أيضاً من الخروج، فأجاب مُكرَهاً «هل سآخذه و هو بهذا المظهر؟». أصبح في غاية السعادة «ألبسيه» قال لزوجته قاصداً إياد. كانت تنظر له متسائلةً إذا ما كان في كامل وَعْيِه أم لا. أرادَت التكلم، فوضع راحَتَيْه فوق يديها الموضوعتان على أذَني إياد «سيكون هناك الكثير من الكلام، لكن بعد خروجهما». قاطعهما نعيم مُتأفِّفاً «هيا، ساتأخر بهذا الشكل». قال السيد إبراهيم فيما هو مستمر بالتحديق في عيني زوجته التي بدا أنَّها أصبحت على توافق تام معه «نحن نريدك أنْ تتأخر». ضحكت حاملةً إياد. و عندما أصبحت بمحاذاة نعيم صفعته، للمرة الثانية هذا اليوم، صفعة رقيقة. و ما كادا يسيران خطوتان حتى جَفَلَ إياد إثْرَ صرخة نَدَت عن أمه، فَشَدَّ يد نعيم موقفاً إيَّاه «إنَّهُ يضرب أمي». أعاد نعيم سحبه شادَّاً خُطاهُ لبيت محمَود قائلاً بلامُبالاة واضحة «يوماً ما ستعشق ذاك الضرب».

❖❖❖❖❖

اتفق الناس مع الليل على ملازمة بيوتهم، لزيادو وَحْشَة الأزقَّة. تفاوتت درجات الظلام، أخَفُّها تسمح بتمييز الأشياء دون معرفة هَويَّتُها، و أشَدُّها تكسر قيود مخاوفك لتَوَهُّم أشباحٌ سارحة و أرواحٌ تائهة. الريح تصمت أحياناً و تعوي حيناً مُحَرِّكةً معها علب الحديد الفارغة مُصْدِرَةً قَرْقَعَةً تزيد في فَزَع إياد، فيزيد إيغال يده في يد نعيم. عمود إنارة وُجِدَ كواحة وسط صحراء اسْتَأنَسَ برؤيته فنَسِيَ مخاوفه، أدرك نعيم ذلك بعدما أحَسَّ بقبضته ترتخي حول يده. عندما مشوا تحته، و أحاطهما الضوء كممثلين فوق خشبة مسرح، توقف إياد فجأة «نعيم...». «ما الأمر يا إياد؟». «قبل سَفَرك، ذَكِّرني بإعطائك قَفَّازات الملاكمة الخاصة بي». ناظَرَهُ بحيرة «و ما سبب هذا العرض السَّخِيُّ؟». نظر إلى أعلى صَوْبَ نعيم، فَضَيَّقَ عينيه بسبب الضوء «لأنِّي لا أريد أنْ يأكُلَ اللّه أظافرُكَ». نظر بريبة لبعض الوقت ثم ضَحِكَ بصوت عالٍ آنَسَ الأشباح المهمومة في زوايا الأزقة «و بماذا ستُساعد قَفَّازاتُك؟». أجاب إياد مُمَثِّلاً بيده اليسرى حول اليُمنى «قفازات الملاكمة سميكة، فيها حَشْوَة. لا أدري ما هيَ، لكنها تُعطي سُمْكَاً آمناً. و هذا سَيُثْقِلُ على الأسنان مهمة الوصول للأظافر. كما أنَّ يدك بعد لبس القَفَّاز تصبح مضمومة كما هو شكل القَفَّاز، و هذا آمن بكثير مما لو كانت ممدودة. أمَّا الكُفوف العادية كالخاصة بالشتاء أو الدراجات، فهي رقيقة من السهل اختراقها للوصول إلى الأظافر. كما أنَّها تجعل أصابعك ممدودة واضِعَةً أظافرك في خط المواجهة. مما سيجعلها مأكولةً لا مَحالة». استَمع نعيم باهتمام شديد، ثم سألَ بفضول أشَدِّ «و لِمَ لَم يُهمِلُكَ أمرها من قبل، فهي طويلة منذ وقت طويل؟». حَكَّ إياد

جبهته «لأنَّنا بعيدين في الأرض، أمَّا في السماء ستكون قريباً جداً منه». نزل قليلاً ليصبح بمستوى طوله، ثم حَشَرَ خَدَّيْه بين كَفَّيْه قبل أن يسأله «من أخبرك بهذا الأمر؟». اسْتَنْكَرَ السؤالَ «المُدَرِّسُ! إنَّهُ المُدَرِّس، لقد حَذَّرَنا من إطالة أظافرنا، لأنَّها إن طالَت فإنَّ اللّٰه سيأكُلُها ...» أضاف مباشرة ناظراً لنعيمَ باستغراب « ...ألَم يُخْبِرُك بذلك؟». ابتسم نعيم «بلى». صَمَتا قليلاً دون أنْ يتحركا قيد أنمُلَة. «إياد». «ما الأمر يا نعيم؟». «من هو المدرس الذي أخبرك بذلك؟». قطب حاجبيه «ألَا تعرفه؟». «لا». لَوَّحَ بيديه معترضاً «لقد أخبرتني منذ قليل أنَّهُ قال لك نفس المعلومة!». تدارك نعيم «صحيح، لقد أخبرتك بذلك. لكن من المحتمل أن يكون مُدَرِّسي غير مُدَرِّسك». أجال إياد عينيه في الأرض مُعيداً كلام نعيم بعدم تصديق «مُدَرِّسي غير مُدَرِّسِك!»

رفع رأسه ناظراً لنعيم بنوعٍ من البَلَه «و هل يَتَغَيَّرُ المدرس يا نعيم!...». بات نعيم ينظر له كَمن ينظر لمخلوق من كوكب آخر « ... إنَّهُ الآن يُدَرِّسُني، و قد دَرَّسَكَ قبلي، و من قبلك دَرَّسَ أبي و امي. ما بِكَ يا نعيم!». حَكَّ أنفه «صحيح...معكَ حق يا إياد. لكنك تعلم، لقد مضى زمن طويل نسيت معه من هو ذاك المدرس. و أرجو أنْ تُذَكِّرَني به». أخرج نَفَساً طويلاً هازّاً رأسَهُ بأسف «مُدَرِّسُ الرسم، الأستاذ يعقوب». رَفَعَ نعيم حاجبيه «آها، تذكرته. إنَّهُ أروَع شخص في المدرسة. أتعلم أنِّي لم أتقن الرسم بقلم الرصاص إلّا على يده؟». نظر إياد مذهولاً «هوَ لا يستخدم إلّا الألوان المائية!». «حقاً!» تنحنح نعيم «إياد سأعقد معك صفقة. سأقوم بِقَصِّ

أظافري قبل ركوب الطائرة فأضمن سلامَتي، و تحتفظ أنت بقفازاتك. و هكذا نتجنب الخسارة معاً». بَقيَ إياد صامتاً يستمتع بترسب ذلك الإقتراح في أعماقه قبل قوله بحماس كبير حَرَّكَ معه يده اليُمنى كمشجع كرة قدم أحرز فريقه هدف «يالذكائك يا نعيم. إنَّهُ اقتراح رائع. لقد علمت منذ البداية أنَّ بإمكانك التفكير على هذا النحو...» خَبَت حماسة إياد فجأة، و كأنَّها لم تَكُن، لتَنْحو نبرته إلى الإستخفاف « ...تأخرت كثيراً لإيجاد هذا الحل». أمسك نعيم بيَده يُعيدَهُ أمامه بعد مَشْيه مُبتَعداً عنه «و هل كنت تعلمه منذ البدايَة؟». رفع كلتا يديه «طَبعاً». «و لماذا لم تخبرني به؟». أمسك بالأظافر الطويلة مُصَوِّباً أنظار نعيم لها «لأنَّ هذه الأظافر مُلْكٌ لك. و لا يجوز لي إخبارك كيف تتصرف إزاءَها. أنا فقط أنصحك بحمايتها» سَرَحَت عينيه بادياً عليه التفكير العميق «ثُمَّ، أتدري يا نعيم، أنا لست مقتنع بقص الأظافر. إنَّهُنَّ مفيدات بالتوغل في الأماكن الضيقة، و وقت القتال إذ يُصْبِحْنَ سلاح». «لكنها مرتع خصب للأوساخ». «و هل هذا مبرر لقَصِّهَا؟ إنَّ الأَوساخ تجتمع تحت الإبطين، فلمَ لا نَقُصُّ الإبطين؟». ابتسم نعيم طابعاً قبلة على جبين إياد «عليك أنْ تعلم أنَّ اللّه رحيم و جليل، فهوَ لا يأكل أظافر الناس سواء أكانت قصيرة أم طويلة، نظيفة أم مُتَّسخَة. و هذا الأستاذ حاول جعلكم تقصون أظافركم حتى في العطلة، فهو يعلم أنَّهُ لا يملك سُلطَة عليكم أثناء العطلة، فاستخدم تلك الحيلة لخداع...» نكزه بإصبعه على صدغه « ...عقولكم الطَّريَّة». انتفض إياد «لا يا نعيم. أنت مخطئ و أستاذي مُحق. لقد رأيت شَخصاً أكلَ اللّه ذراعه بأكملها و ليس فقط أظافرَه. و هناك آخرين أُكِلَت

أرجلهم...» وَجَّهَ إصبعيه الوسطى و السبابة باتجاه عيني نعيم مُمازحاً «...لكني لم أرَ أيٍّ منهم». تَلَفَّحَ الغضب نبرة نعيم فيما قَبَضَ بشدة على كتفي إياد «اللّه لا يأكل يا إياد. اللّه ليس كباقي البشر. هوَ خلَقَنا و خَلَقَ الإبتلاء. هؤلاء الذين لا أيْدٍ أو أرجل لهم هم مُبْتَلين لا مأكولين. إن صَبروا و حمدوا اللّه سيدخلون الجنة. لكن إذا تذمروا و كفروا سيدخلون النار. و أنت إنْ بقيت تتكلم عن اللّه بهذا الشكل فَسَيُدْخِلُكَ النار». أبعد يدي نعيم عن كتفيه بغضب «فقط إذا تحدثت سيرمِيني في النار؟ أين ذهبت رحمته إذاً؟». رفع يده عالياً في الهواء موشكاً على صفعه «انتهى الكلام. أخطأت حين وافقت على أخذك معي. هيا نُكمل طريقنا» و أمسك يده يشدهُ بعنف. حاول إياد ضبط نفسه حتى لمح شبح جده، فعلا بكاؤه. كانت فقط مسألة وقت بالنسبة لنعيم، فَلَم يَخفى عليه أنَّ بكاء إياد سيعلو عاجلاً أم آجلاً. و قد حَدَّثَ نفسه بعدم تكليم أو حتى النظر لإياد حين يبدأ بالبكاء، لأنَّهُ بهذه الطريقة سيجعل منهُ رجلاً شديداً يستطيع الاعتماد على نفسه، و تَحَمُّل تَبَعات أخطائه. لكن ما أنْ سَمِعَ البكاء حتى رَقَّ قلبه لدرجة كاد فيها يبكي هو أيضاً، فقام بمعانقة أخيه الأصغر «أنا آسف. كان غباءاً مني قول ذلك». اختلاط نبرته بنشيجه أرهفت سَمْعَ نعيم «لم أقصد مضايقتك. أحببت فقط الإطمئنان عليك في آخر ليلة تقضيها هنا». مسح دموعه بإبهاميه «أنت لم ترتكب أي خطأ. لقد غضبت فقط لكَثْرَة ما هُزِأَ بي...» نظر صوب عمود الإنارة حيث كانا واقفين منذ قليل «...ثم إنَّك مُحق. لقد عُلِّمْنا أنْ نخاف اللّه. لَكنَّا لم نعرف كيف نُحِبُّهُ». و كما أوْهَمَ أنَّ والده يحمل إياد في السوق، قام بحمله

بنفس الطريقة. «أنا ثقيلٌ عليك» اعترض إياد. قَبَّلَهُ نعيم بالقرب من مُلتَقى شفتيه «لا، أنت أخَفُ منهم جميعاً». «من هُم؟!». غاصت عيناهُ في الظلام فيما إياد يَتَطَلَّعُ إليه مُرتاباً يفكر في هَزِّ رأس نعيم، لولا قول هذا الأخير فجأة كمن يُخاطب نفسه «أظن أنَّ السفر أفضل حل بالنسبة لي. لكن ليس هذا، فأنا سأذهب عند عمي نائل. تمنيت لو أسافر لأرض لا أعرف فيها أحد و لا أحد يَعْرِفُني. و هناك أفقد الذاكرة فأفقد كل صلة لي بالماضي. حينها سأرتاح لأني لن أخاف على أحد و سأتوقف عن التفكير في خوف الناس عَلَيّ. لن أهتم إن نجحت في هذه الحياة أم فشلت. سأكون حُراً في اختيار ما أريد دون أي تدخلات. سأضْرِبُ من أريد، و سأُضْرَبُ كيفما شئت. لن تعود هناك أي ذكرى مؤلمة تُفْسِدُ لحظات فرحي. و ستختفي الذكريات المُفرِحَة التي تُبكيني أوقات خُلْوَتي. فقط لو...» توقف عن الكلام فجأة بعدما اشتدت ذراعي إياد حول عنقه، و كأنَّهُ لم ينتبه إلا الآن أنَّهُ يحمله. عادا يسيران بصمت يُدمي جدران الأزقة. «نعيم...». «ماذا بعد يا إياد؟». نظر في عينيه حتى شَعَرَ بالحَوَل «أنزلني...أنزلني أرضاً، فلن أقدر على محادثتك بهذا الشكل». أنْزَلَهُ أرضاً «و الآن ماذا هناك؟». نظر له قليلاً، ثم راحَ يَحُكُّ مؤخرته. سأله نعيم ضاحكاً «ماذا تفعل؟». قال إياد بنبرة تناغَمَت مع إيقاع الحَكِّ «لا أستطيع...إنها تَهْرُشُني هَرْشاً شديداً». توقف بعد بُرهة «حسناً، و الآن...» تَكَلَّمَ رافعاً يده في وجه نعيم، فقاطَعَهُ بسرعة «لا، لا، لا، لا...لا ترفع في وجهي هذه اليد». ضحك إياد «إنَّني أُكَلِّمُكَ بجدِّيَة». «و أنا كذلك، ألَا تستطيع التكلم دون استخدام يداك؟». «فقط و هُما في جيبي». أطرق نحو الأرض

مُتظاهراً بالحزن «هذا مؤلم» ثم أمسك يد إياد، التي حَكَّ بها مؤخرته، و قَبَّلَها «قل ما تريد». نظرة الإعجاب التي رمقه بها، أشعرت نعيم بأنَّهُ بطل خارق، فحاول الإبتعاد عن الهزل و الظهور بمنتهى الجدية، خاصة بعد سؤال إياد «بعد سفرك، هل سَتُقابِل جَدِّي؟». «بالطبع لا، فجَدِّي قد مات». أنْزَلَ حاجبه الأيمن «و أنت؟». ضحك متعجباً «أنا مُسافر». «لكن...» أنزل إياد رأسه «... ليس مهم. انْسَ الموضوع». أمسكَ نعيم بأنفه مُعيداً رفع رأسه «بل مهم. تكلم». «أليسَ المسافرون و الأموات يذهبون لنفس المكان؟». نظر نعيم له بملامح من ينظر لشخص أبله. قال إياد «قلت لك انْسَ الموضوع. لكنك رفضت، و ها هيَ النتيجة». «إياد...». «ما الأمر يا نعيم؟». «أتدري الآن أنَّنا، أنا و أنت، مُسافران؟». حقاً!». «نعم، فالسفر ما هو إلّا انتقال من مكان إلى آخر في نفس الأرض. و عندما أسافر لن أذهب لعالم آخر، بل سأبقى في الأرض و لكن في منطقة بعيدة عنك تَلْزَمُكَ مدة طويلة للوصول إليها. و لكن في المُحَصِّلَة سأكون بين الأحياء و ليس بين الأموات الذين يذهبون إلى عالم مختلف كلياً عن عالمنا». «و هذا العالم المختلف، ألَا نستطيع السفر إليه ثم العودة مرة أخرى؟». «لا». قال بتردد «أيمكنني السؤال لماذا؟». «إياد». «هل أزعجتك يا نعيم؟». «لو ذهبت لأحد مُدَرِّسيكَ، و طلبت منه أسئلة الإمتحان قبل مدته بأسبوع، هل سيوافق؟». «طبعاً لا». «لماذا؟». «سأعرف الأسئلة و أحفظ الأجوبة فقط، و لا حاجة لي بباقي الكتاب». «كما سيكون هناك ظلم لباقي الطلاب. إضافة لزوال مغزى الامتحان الحقيقي. عدالة اللّه المُطلَقة اقتضت إخفاء حقيقة ذلك العالم عنَّا، مع إعطائنا التوجيهات لكيفية

النجاة فيه. سألتَني كيف يكون الله رحيم و سيرمي بالكثير من الناس في النار، و لكن عليك ألّا تنسى أنَّ رحمته لا تُنْقصُ من عدالته. هناك أفراد يضربون بتوجيهات النجاة عرض الحائط و يُفَضِّلُونَ عليها الهلاك، و هؤلاء لا يستحقون رحمة الله، لأنَّهم تركوا ما يُعادل محيطات و أبحار من الرحمة، و اختاروا بإرادتهم بركة الهلاك الصغيرة». جحظت عينا إياد «أحقاً يوجد من يفعل ذلك؟». وضع يديه على كتفيه «أكثر ممن لا يفعلوا ...» تَنَهَّدَ مُطاطئاً رأسه « ...و أخشى أنْ أكون منهم». اقترب إياد خُطوة «الله ليس بحاجة لنا، أليس كذلك؟». «بلى». «إذاً لماذا خَلَقَنا؟». «هذا السؤال يا إياد لن نستحق معرفة جوابه إلّا بعد استحقاقنا النجاة في العالم الآخر. لقد طلب الله منَّا التأمل في مخلوقاته، و نَهَانا عن محاولة تحليل ذاته. ففي الأولى سنتعرف إليه بكل سهولة، أمَّا في الثانية لن نخرج إلّا بالحيرة الصَمَّاء و الكآبة المُشَكِّكَة. من نحن يا إياد حتى نُحاكم الله. هوَ أعلم إذا ما كان الوجود أم العَدم أفضل لنا. و بما أنَّهُ اختَار لنا الوجود، فالوجود أفضل». حَكَّ إياد شعره «هذا يعني أنَّ جدي عَرَفَ الجواب...» اكتفى نعيم بالتحديق في إياد مذهولاً من قدرته على الربط بين الأشياء « ...أتظن ذلك يا نعيم؟». «إنْ نجا، فلن تكون له حاجة بمعرفة الجواب، سيقوم فقط بحمد الله لأنه خَلَقَهُ للعيش في رحاب ذاك العالم. لكن إن هَلَك...» قاطعه إياد بغضب «جدي لنْ يَهْلَك، لقد أعطى ذات يوم رجل محتاج، يراه لأول مرة، خاتم ثمين جداً». كانت دهشته كبيرة لدرجة تَوَجَّسَ إياد منها. اقترب منه كثيراً حَدِّ اشتمام رائحة نَفَسه بوضوح حين كَلَّمَهُ «سأتركك في بيت خالي، و أخرج برفقة محمود. لا تخبر أبي». قال

بحـزن «هـل ستخدعني و تسـافر رفقـة محمـود؟». «لا . سـنذهب لتوديع بعض الأصدقـاء». «لكن أبـي لا يريد لأحد معرفـة أنَّك مُسـافر». «لـن أخبرهـم بذلـك. سـأتظاهر فقـط بزيارتهـم. لكـن المهـم ألّا تخـبر أبـي». «حسـناً». «إياد ....» قالها بنبرة تُوَضِّحُ أنَّ الموضـوع خطير»...كما قلت لـك، إيَّـاك و إخبـار أبـي». أجـاب بتذمـر «مـا بِـك يـا نعيـم. أقسـم بِـألّا أُخْبِـر أبـي». مـا كادا يتحـركان حتـى عـاد نعيـم يقـول «هـاقـد اقتربنـا . كمـا قلت لـك، لا تخبر أبـي». ضَـرَبَ الأرض بقدمـه اليمنـى بغضـب، و قـام بالترديـد في وجـه نعيـم بطريقـة آليـة كجنـدي يُعَـرِّفُ عـن نفسـه أمام قائـد كتيبتـه «لـن أخبر أبـي أنَّـكَ تركتني في بيت خالي، و خرجت رفقـة محمـود». ثـم نظـر للإتجـاه الأيسـر بالنسـبة لنعيـم و ضـرب الأرض بـذات الطريقـة «لـن أخـبر أبـي أنَّـكَ تركتـني في بيـت خـالي، و خرجـت رفقـة محمـود». بعدهـا أعطـى ظهـره لنعيـم ضاربـاً الأرض كمـا فَعَـلَ مـن قبـل «لـن أخـبر أبـي أنَّـكَ تركتـني في بيـت خـالي، و خرجـت رفقـة محمـود». و أخـيراً نظـر للإتجـاه الأيمـن بالنسـبة لنعيـم ضارباً الأرض كالمـرات الثـلاث الماضيـة «لـن أخـبر أبـي أنَّـكَ تركتـني في بيـت خـالي، و خرجـت رفقـة محمـود». «هـل ارتحـت الآن؟». ضحـك بسـعادة بالغـة أثنـاء توجهـه لمعانقـة إيـاد. كانَ علـى علـم بامتلاكـه أخ أصغـر، إلّا أنَّـهُ الآن فقـط شَـعَرَ بمعرفتـه لإيـاد، و لـو قَليـلاً. كثير مـن الهواجس و الأفكار تحركت و تلاطمت في رأسـه. جميعهـا تـدور حـول إيـاد، و الخـوف كان سـمَتُها. سـؤال واحـد طَفَـا فوقهـا جميعـاً «إيـاد، مـا طبيعة حياتك بعد مئتين سنة».

❖❖❖❖❖

فُتحَ الباب، و أطَلَّ رأس محمود . «نعيم!» قال مستغرباً قبل تضييق عينَيه لمعرفة هوية الواقف بجانبه. عَرَفَهُ، فانطلق نحوهم فاتحاً ذراعيه بسعادة غامرة «و إياد أيضاً ...أهلاً، أهلاً بأبناء عمتي». فُكاهَتُهُ أفرحت إياد من كل قلبه، فيما قال نعيم بضجر أثناء قيام محمود بمعانقته «ستبقى غبياً حتى لو حصلت على الدكتوراه». أمسك يد نعيم مُيَمِّماً صَوْبَ بيته «الطقس بارد، فلندخل البيت بسرعة». أوقفَهُ نعيم «لا . أنا و أنت سنذهب. أمَّا إياد سَيَبْقى». نظر محمود متعجباً «أقرأت اليهودي التائه؟». قَطَّبَ نعيم حاجبيه لا يفهم قول مقصد محمود، ليقول مباشرة بضيق واضح «أريد الذهاب للبقالة التي كنت أعمل بها لأخذ مُستَحَقَّاتي. و أرغب في أن تُرافقُني. إياد سيبقى في بيتك. أرجو ألّا تخبر خالي بقدومي مع إياد . أَخبره بأنَّهُ جاء لوحده. ثم تظاهر أنَّكَ ستخرج. سأنتظرك هناك في تلك الزاوية المَخْفيَّة». ارتاب محمود «هل الأمر مهم لهذه الدرجة؟». «نعم». نَظَرَ لنعيم من أسفل لأعلى منتبهاً تَوَأً لمظهره «ما سر كل هذه الأناقة؟». صَرَخَ إياد بنفاذ صبر «هَيَّا يا محمود». ارتعد لتدخل إياد المُفاجئ و كأنَّ نحلة لَسَعَتْهُ. أمسك بيده متوجهاً للبيت فيما يقول لنعيم «سأعود حالاً». سَمِعَ نعيم قَوْلَ محمود لإياد لحظة فتحه باب البيت «لطالما تمنيت أنْ تكون أخي». بعد وقت قصير، عادَ محمود . استطاع تمييز شبح نعيم في ظلام الزاوية. «هل البقالة بعيدة؟». «لا». «حسناً». أخرج سيجارتين و علبة كبريت من جيبه. أشعل سيجارة، و أعطى الثانية رفقة علبة الكبريت لنعيم «خَبِّئهن مَعَك». نظر نعيم له مستغرباً، فَغَمَزَهُ محمود «الإحتياط واجب». ابتسم نعيم واضعاً السيجارة و علبة الكبريت في

جيبه الأيمن. سارا صامتين لبعض من الوقت قَضاهُ محمود يُراقب السعادة الفائضة من نعيم. أراد سؤاله عن سببها، فإذا بنعيم يسبقه بالكلام «إنَّها أول مرة اكتشف فيها مدى روعة و جمال طريق بيتك». سَخرَ محمود «خاصة مع القاذورات المنتشرة كطلاب المدارس وقت الفُسَحَة. و مزاريب المياه التي لن تنتهي من قضاء حاجتها. إضافة للصراصير الطائرة غير المضمون استقرارها في فَمك أثناء التكلم أو التثاؤب. ناهيكَ عن مَناهل الصرف الصحي و تَقَزُزِها من ابتلاع فَضَلاتنا، لتُعيدُها إلينا بطَريقة أقل تهذيباً من طريقة تقديمنا لها، و تُعطَينا فوق ذلك هدية، سُلالات من الفئران و الجرذان». قال نعيم مُستَخفَّاً «لم تبلغ الجوهر بعد يا ابن خالي. و لَأُعطيك نصيحة تُساوي كنوز الدنيا. نحن لا نستطيع بلوغ الجَوْهَر. الجوهر من يَتَلَبَّسُنا. فقط حينَ نَتَسامى فوق المظاهر». «هذه هيَ» قال محمود في نفسه. لقد بلغَ نعيم مراتب الصوفية دون قراءة صفحة واحدة من أدبياتها، أو معرفته بوجود هذه الكلمة من الأساس. السؤال عن سبب سَعادته، عَدَلَ عنه، لعلْمه أنَّهُ لن يقدر على شرح الأسباب. هي فقط تَحيا داخله. فإذا ما حاول إظهارها للخارج عن طريق الكلمات، فَسُدَت. تذكر محمود أحزانه الكثيرة و تعاطف الكثير من أصدقائه معها، حتى يسألوهُ عن سببها. كان يُخطئ، فيتحدث، ليتفاجأ بضحك و سخرية أصدقائه و قولهم بأنَّ حزنه تافه. كان يجهل حينها أنَّ أصدق الأشياء هي التي تبقى في داخلنا، فإذا ما استقرت على اللسان تَحَوَّلَت لأكاذيب صَرفَة. و الآن رفض تماماً جعل ابن عمته يرتكب ذات أخطائه الماضية، فاكتفى بالتلذذ بإشعاعات السعادة المنبعثة من نعيم الهائم في عوالم

خيالية رأى فيها قططاً تصفق له خلف أزهارٍ مُنحنية رفقة حجارة تحييه تحية عسكرية تزامناً مع تَبَدُلِ عواء الكلاب لموسيقى كلاسيكية عُزِفَت تحت إشراف وجه القمر الباسم جاعلةً إيَّاهُ على بُعْدِ خطوات من موتٍ يرقد على مقدمة سيارة مسرعة لولا يد محمود التي انتشلته في اللحظة الأخيرة «انتبه يا نعيم. بماذا تفكر؟». لم يسمع إلّا صوت مزمار سيارة، ثمَّ شيئاً قام بسحبه. احتاج بعض الوقت لاستيعاب ما وَقَع «أعتذر. كنت أفكر بالسفر». سأله محمود «أيُّ سفر؟!». بانت على نعيم ملامح التَفَطُّن لزلة لسانه، فقال مرتبكاً «أتمنى السفر. هذا كل ما في الأمر». بانت الحسرة في نبرة محمود «لماذا تخاذلت صداقتنا بهذه السرعة؟». «ماذا تقول يا محمود؟ صداقتنا كما هي لكنِّي مشغول بالتفكير في بعض الأمور». «لو كانت صداقتنا كما هي، لَمَا انشغلت بالتفكير في صمت. لَكُنْتَ أخبرتني بما يشغل بالك و استمعت لرأيي كما لو كانت تلك المسائل تخصني». ما كسر الصمت بعد ذلك إلّا وصولهم للبقالة. «هذه هي البقالة» أشار نعيم. «أُحبُّ الأشياء البسيطة» قال محمود . زاد في سعادة نعيم رؤيته لبعضَ أبناء الحي مُتَحَلِّقين أمام باب المستودع الثاني، الأمر الذي سيعطيه حُجَّةً للبقاء في حال تأخر ظهور دارين. أمسك بيد محمود «تعال أُعَرِّفُكَ على الأصدقاء القُدامى». ما كادَا يَصلوهُم حتى انهالت صَيْحات تراوحت ما بين الفرح و عدم التصديق «نعيم...نعيم...نعيم». توجهوا لتَحيَّته فيما قام بعضهم بتقبيل رأسه وَسْطَ أسئلة عن الحال و أسبابَ الغياب صَدَرَت من عدة أفواه في وقت واحد . راقَبَ محمود بدهشة محفوفة بالغيرة نظراً لشعبية ابن عمته الكبيرة بين أبناء الحي. أمَّا نعيم

فقد نَسيَ وجود ابن خاله معه بعدما أحَسَّ أنَّهُ مركز هذه اللحظة، و ما تذكره إلّا بعد سماعه سؤال طائش قَذَفَهُ للمحيط «أهذا صديقك؟». راح يعتذر لمحمود مُتَعَلِّلاً بفرحه الكبير بلقاء أصدقائه إلى حد نسيَ معه تقديمه لهم. «لا عليك» قال مُبتسماً، ثم غدا يُصافح كل شخص بقبضة قوية تُعَبِّرُ عن التقدير و الإحترام، أثناء قيام نعيم بذكر اسم كل واحد منهم. عادوا جميعاً للجلوس أمام المستودع. و بدأت الغيرة تنتقل لنعيم بعدما رأى سرعة إنسجام محمود مع أبناء الحي، خاصةً بعد جذب اهتمامهم و أنظارهم إليه حين كَلَّمَهُم عن مواضيع فلسفية و اجتماعية كان يعتقد آنذاك أنَّها علم. و مع ذلك لن تكون غيرته بقدر غيرة محمود، فقد ألْهَتْهُ عودة عادة خطف النظر لرأس الشارع عن الإهتمام بمُجالَسَة أصدقائه. «لم تدخل البقالة» قال محمود بعدما أنهى حديثه عن بُنيَة العقل العربي حسب رأي محمد الجابري و راح أبناء الحي كُلٌّ يفكر في صمت. «الآن...» لاحظ ارتباك نعيم «...بعد قليل أقصد سأذهب». أوشك على إجبار نعيم بمُصارَحته عَمَّا يجول في خاطره لولا رؤيته فتى وَقَفَ خلف نعيم، و راح يحدق فيه كما لو كان في حلم. انتبه نعيم لنظرات محمود، فقام بِتَتَبُّعها ليجدها مُركَّزة على طارق. «أهلاً طارق. ما بك؟ أرأيت كابوس؟» قال ضاحكاً أثناء توجهه إليه. بدا الحزن على طارق، بقايا ذكريات مؤلمة تحبس عنه الفرح «أنا آسف يا نعيم...». رفع يده في وجهه طالباً منه التوقف «أرجوك يا طارق، لا داعي لاستحضار الماضي». أنزل رأسه أرضاً، فوضع نعيم يده على كتفه «ما حال البقالة؟ هل أتيتم بموظف جديد؟». «نعم. لكن أبي في البقالة إنْ رَغِبْتَ بمُحادَثَته». بدت الحيرة عليه

«لا أعرف». «لك القرار» قال طارق بلامُبالاة. أخذ نفساً عميقاً محاولاً الحفاظ على رباطة جأشه، ثم مشى نحو البقالة. كان في نيَّته الإبتسام لأبي طارق، و مصافحته، و إجراء حديث معه كرجل بَالَغَ يخبره فيه عن خططه المستقبلية، و بعض النصائح لتحسين عمل البقالة. بَقيَ ذلك في النيَّة، إذ تَصَنَّمَ لحظة رؤيته الموظف الجديد و السارقَ القديم. ارتسَمتَ ابتسامة صغيرة على شفاه أبي طارق خلال تأمله الشرر المتطاير من أعين نعيم «اهدأ يا نعيم». سأل مُهتاجاً مُشيراً نحو الرجل «أتدري من هو؟». بان المكر في عينيه «لقد جاء و اعتذر مني. على عكسك أنت، إذ لم تعتذر أبداً. و فوق ذلك كنت تتجاهلني كلياً مُولياً لي ظهرك». سأل مستغرباً «أعتذر عن ماذا؟». عَبَّرَ عن قهره الشديد بتنهيدة عميقة «هكذا أنت مدينٌ لي باعتذار آخر». «أبو طارق أرجوك، لا تحدثني بالألغاز». أشعل سيجارة «ليس مهم يا نعيم...ليس مهم. لقد قُضيَ الأمر. و حتى إنْ فهمت الآن فتذكر، حين لا يعود الفهم ذو فائدة». اغتاظ من برودِه «لقد لحقتُ هذا الرجل لمسافة طويلة. لقد سرق بقالتك. كيف توافق على عمله عندك!». آثَرَ الصمت مستمتعاً بنفث سحابات دخان تحجب وجهه لبعض الوقت. فتح الدرج، و أخرج منه ظرفاً أبيضاً مَدَّ به لنعيم بمنتهى الهدوء «نقودك». «لم آتي...» حاول تبيان أنَّ النقود ليست مقصد زيارته، لكن أبو طارق هَزَّ الظرف في يده بنوع من الضيق، فسارع نعيم لأخذه و دَسِّه في جيبه الأيسر. «ألَن تَعُدُها؟» سأل غير مُكترث. ابتسم نعيم «يكفي أنَّها من يدك». أومأ برأسه مُتغاضياً و كأنَّهُ مَقَتَ تلك المجاملة، ليقول بعدها دون تردد «و الآن أخرَج من بقالتي». جحظت عيناه

حتى شعر أبو طارق أنَّهما أصبحتا على بُعْد مليمترات منه. تزعزعت ثقته بنفسه فلم يجرؤ على فعل شيء، اكتفى بانتظار ردة فعل نعيم. و ما كان ليَسْخَط لو رَماهُ بأسطوانة غاز أو حذفه بزجاجة عصير، ففي جانبه الصغير المتصل بالله اعترف بظلمه لنعيم و بات مستعداً لأي عقاب. عاد الصوت ليسخر منه بنبرة مُحَفِّزَة، إنَّها فرصتك، لا تَخَف، هوَ آخر تواجد لك في هذا المكان، لا تخرج منه ذليلاً، مالكَ واقفٌ مكانك، تحرك، تحرك، تَ... حَرْ...رَك. اختفى الصوت. نَظَرا له كقنبلة موقوتة لا يعرفا كيفية التصرف إزاءها. لحظة تَرَقُّب أحَسَّاها دَهْراً لم تعنِ لنعيم إلّا عودة لساعات قليلة حين لم يكترث بالقول في وجه أمه بأنَّ أباه على حق، و ليتفوق بعد ذلك على أبي طارق في القسوة، فيضيف السفر أفضل من الجيش. الآن فقط فَهِمَ نذراً يسيراً مما كان يختلج في نفس والدته. أراد بكل ما فيه من حياة و قوة الرجوع إليها و الإعتذار. لكنه تذكر على حين غفلة أنَّ والده حالياً يعتذر لها عن سنة ماضية و سنة قادمة، فاستدار جهة باب البقالة، دون رفع رأسه، خارجاً منها للمرة الأخيرة بهدوء كما دخلها أول مرة بهدوء. و من أمام الباب سَمِعَ الأنفاس، التي كادت تنفجر في صدر أبي طارق، تخرج متسارعة متوالية السابق منها يلعن اللاحق. شَعَرَ أنَّه فارغ من الداخل، لم يعد يفهم شيء، فجاء طارق ليزيد في تَخَبُّطه «أبي كاذب». شَزَرَهُ نعيم «كيف تقول هذا عن والدك!». راح طارق يقول بصوت خافت يلتفت معه يميناً و يساراً خائفاً من تسلل كلماته لغير أُذُنَيِّ نعيم «عملية السرقة بأكملها من تدبير أبي. قبل يومين من الحادثة جاء هذا الرجل في الصباح الباكر يسأل عن

عمل. أمرني أبي بالانتباه للبقالة، و صعد رفقته إلى الأعلى». قال نعيم بريبة «طارق...أكنت تَتَنَصَّتُ علينا؟». ملأ الذهول نظراته «كم تغيرت يا نعيم! ماذا أصابك؟ أُحَدِّثُكَ عن ماذا و أنت تحدثني عن ماذا!». جَنَحَت عيناهُ إلى القمر «والدك مُحق، قُضيَ الأمر. ما عاد شيء مهم...» سَرَحَ قليلاً « ...لكن على أبيك الحذر. هذا الرجل يملك قابلية للسرقة. و لن يتوانى عن سرقتكم إذا ما سنحت له الفرصة». بان القلق على وجه طارق «ما أعـ...» هَرَعَ للبقالة إثْرَ نداء والده تاركاً نعيم يُخَمِّنُ ما كان سيقوله قبل انتفاض أنفه لرائحة عطرة قادمة من البعيد . من الشرق. حيث تقطن دارين. و حيث هي تمشي الآن لتَصْدُقَ ظنون نعيم. كان متأكداً من البداية أنَّها ستخرج هذه الليلةَ بالذات، فَما وجد محمود في بيته و وافق على الخروج معه إلّا لهذه الغاية، و ما كان ليجتمع أبناء الحي لولا إحساسهم بسعادة و بهجة سَيَنْثُراها نعيم و دارين ملءَ الهواء. كان يراها بوضوح، بذات الرونق الذي رآها به آخر مرة. غَيْرَ أنَّها استبدلت كيس الهدية بكيس قُمامة حَيَّرَهُ في الرائحة العَطِرَة، و طَمْأنَهُ بأنَّ مَسْعاها إلى الحاوية. و لم تنجح كل إشارات التخاطر التي أرْسَلَتْها عيناه في التفاتها نحوه، فاقترب من ضوء البقالة حارصاً على عدم دخولَ جسمه نطاق رؤية أبو طارق، ليصبح نصفه تحت الضوء و النصف الآخرَ في أحضان الظلام المُقْمِر، لكن عبثاً. أصبح عقله يعمل بسرعة، عليه التفكير بطريقة للإختلاء بها دون لفت أنظار أحد. حَسَبَ المسافة التي تَلْزَمَها للوصول إلى الحاوية، و كانت خطته تقضي بالمرور من ورائها، و القول لها بصوت خافت أنَّهُ سيدخل الطريق الترابي، و ينعطف فيهِ يساراً،

حيث يُلاقيها بين أشجار الزيتون على بُعد ستة بيوت. لم يَقْتَنع هو نفسه لما جالَ في خاطره، لكن الوقت يُداهمه، و عليه الفوز بشيء واحد على الأقل لكَيْلا يخرج من فصل حياته هذا خاسراً على جميع الجبهات. يَفْصلُها أربعين متر تقريباً عن الحاوية، قَرَّرَ أنَّها مسافة مناسبة للإلتقاء بها عند نقطة تَسْتَعْصي على خائنة الأعين. عَدَّلَ معطفه، سَرَّحَ شعره بيده، و ابتسم. خطا أول خطوة و لم يُتْبعُها بالثانية، إثْرَ رؤيته وفا قادماً من الجهة المقابلة. نفس المسافة التي تفصله عن الحاوية تفصل دارين، بحيث لو بَقيا يمشيان على نفس هذه الوتيرة فَسَيَلْتقيان عند أكياس الزِّبالَة المكدسة داخل حاوية دُهنَت بالأخضر الغامق. «ما جاء بهذا الأحمقَ الآن» قال نعيم ممتعضاً في نفسه. ظهور وفا ألغى الخطة الحالية من أساسها. عَجَّلَ بالتفكير في خطة جديدة، كأن يلحقها عندما تغادر، أو يُنادي على محمود فتنتبه لوجوده، أو حتى يذهب للتعارك مع وفا الذي اهتزت ثقته بنفسه أمام نعيم منذ ناح طلباً لمغفرة أبي طارق. أحَسَّ بوجود خطأ ما بشأن دارين و وفا، لم يبدو مَشْيهما كعابري سبيل لا يعرفان بعضهما. كانا كقطبي مغناطيس متشابهين يَتَجاذَبان. كليل و نهار يَلجان بعضهما طمعاً في إنتاج وقت يفني مبدأ الثُنائية. مشاعر يعيها جيداً أوقفت تفكيره. مشاعر لطالما أرسلها و استقبلها. أمَّا الآن فرُغماً عنه سيُراقبها. فقط سيُشاهدُها خامدة ما بين وفا و دارين تلتهب كلما تقدما خطوة باتجاه الحاوية. ظَنَّ أنَّ أبناء الحي اجتمعوا احتفاءاً ببهجة و سعادة سينثرها بمُباركة دارين، فإذا به الوحيد الذي يراقب حوار عيني وفا مع عيني دارين، بغيظ و ألم. نعيمٌ واقف بلا حراك، و هُما

يَمشيان فتَتَقَلَّصُ المسافة بينهما، ليَصحَّ تخمينه بتلاقيهما عند الحاوية. لكن ما لم يُخَمِّنْهُ أنَّ ذاك اللقاءَ لن يمر مرور الكرام، ففيه ابتسمت دارين لوفا ابتسامة أجْهَمَت نعيم الذي بالرغم من عدم رؤيته لوجه وفا إلّا أنَّهُ رآهُ يبتسم لها ابتسامة تجمع خلف انشراحها السلام و الكلام إضافة للموعد و اللقاء اللَذَيْن رفع الراية البَيضاء عند حصْنَيْهما. أفنى الكثير من الوقت في تخطي كل خطوة على حدة، و مع ذلك لم ينجح في إكمالهن. ليعطيه الآن وفا درساً في كيفية مشي جميع الخطوات في خطوة واحدة. اعتقد أنَّهُ بالاحترام سيكسب عَطْفهن، و لن يُفدّهُ الآن بشيء معرفة أنَّ التمرد طريق إخضاعهن. بعَين الندم راقبها ترفع كيس القمامة هاويةً به للحاوية، و سامحَةً لوفا بتَقَدُّمها بضع خطوات، ثم تلحقه بمؤخرتها المتراقصة التي لَم يقدر على مراقبتها بشهوة و تَهَيُّج كالأيام الخوالي، فهذه المرة لا ينفع مراقبتها إلّا بتعاسة و عذاب، فعدا عن كَوْن وفا هو المُتَمِّمُ للرقصة، فإنَّ كل الثمار التي غرسها و اعتنى بها في حديقة دارين، ستقطفها يد وفا القذرة التي لا يغسلها بعد إزالتها البُراز عن مؤخرته. تَرَنَّحَ نحو الحاوية بلا تخطيط أو تفكير. و فوق ذات المكان الذي ابتسم منه وفا لدارين، وقف. و فعل ذات الأمر مع موقع ابتسامة دارين. لم يعرف كيف يتصرف حيال الرذاذ الذي خَلَّفاه، و لا كيس القمامة مُزَيَّنٌ ببصمات دارين. أطال النظر في رأس الشارع حيث كان يرقب ظهورها، و تنعشه نسمات الهواء المارَّة من هناك. لَمَسَ تغير كبير فيه أعْلَمَهُ بمدى حماقته بعدما عَرَفَ لأول مرة أنَّهُ لم يكن يرقب ظهورها من رأس الشارع، و إنَّما قدم الشارع التي تُتْقِنُ الركض و الرقص. حارَ كيف يمكن أن تكون

النهاية لا تليق بالبداية، و كيف يُقْتَطَعُ مشهد الخاتم من ملحمة تاريخية ليُزَجَّ في قصة سخيفة لا تستحق الإدراج تحت أي تصنيف، و كيف يترك إياد وحيداً يُصارع إشكاليات الوجود لرؤية فتاة تنتمي لذات الشرق الذي نَفاهُ من قبل. أزاح نظره حيث محمود و الأصدقاء القُدامى مُنسجمين تماماً، و يطلقون الضحكات بأعلى أصواتهم. دَقَّقَ النظر في دائرتهم، وَجَدَها مغلقة لا تحوي أي ثَغْرَة تَرحيب به. اتجهت عيناه للبقالة، رأى أبا طارق و الموظف الجديد يتجاذبان أطراف الحديث. هما رجلان بالغان، و لكلٍ منهما جعبة مليئة بالحكايا و المغامرات. بحث عن طارق فلم يجده. صعدت عيناه نحو الشرفة فما رأى أم طارق. مالت عيناه يميناً حيث غرفة نوم أبو طارق الواقع نافذتها على الشارع. رَفَضَت السِّتارَةُ كَشْفَ ما يُنيرُهُ الضوء في الداخل، فثأرَ هذا الأخير ببَثٍّ، على الستارة، مشهد حَيٍّ و مباشر لظلَّيْن يَتَناكَحان. أيْقَنَ حينها أنَّ طارق أيضاً نجح في الذهاب شوطاً أطول بكثير مما استطاعه هوَ مع الأُنْثَيَيْن، أمُّهُ و دارين. لم يُكمل المشهد حتى النهاية. كَفَاهُ الاطمئنان بوجود أنيس لكل شخص، يُمْكِنُهُ إراحة رأسه عليه. أمَّا رأس نعيم المُثَقَّل بالهموم لم يَجد الإناسة إلّا في الطريق الترابي. ذاك الطريق الذي ظَنَّهُ دربا للجنة أوّلَ الأمر، يراه الآن بصيصَ تَسَرُّب من الجحيم. دَلَفَ فيه مع بداية اتِّشاحِ السماء بسوادٍ دامسٍ حالك انتقل للأرض بعدما حَسَرَت نورَ القمر طبقةٌ طيفيةٌ ضبابية. و لم يكن ذاك الظلام أبداً مَدْعاةً لكل مُرادفات الخوف التي أصابتهُ، فَلَطالَما استأنَسَ بالظلام من بُغْضِ أعيَن الناس، بل الرؤية بشكل واضح. كان يَعي أنَّ الظلام مُطْبِق، و مع هذا يَرى و كأنَّهُ في وَضَحِ النَّهار، فتلك

القطط التي صفقت له أثناء قدومه، يراها الآن تَرْفَع مَخْلَبَها الأوسط في وجهه دون أي حَرَج من المُجاهَرَة بهذه الحركة البذيئة. و الأزهار ذات الإنحناءة المتواضعة اختَلَفَت، فأغلبها نظرت له باستحقار، و البقية اشْمَأزَّت من رؤيته. والكلاب لم يَسْتَطَب لها التراجع عن الموسيقى للعواء، بل نقلت الموسيقى للسخرية و التهكم من نعيم لهذه الخلوة الأخيرة العابقة بالرومانسية. وحدها الحجارة الصَّماء رأى الماء يخرج منها. ذهب ليتأكد إذا ما كانت مُتَعاطفَة معه أم تقضي حاجتها، فتوقف إثر شعوره بسيخ حديد يسريَ في دماغه. عصر رأسه بين يديه يصرخ و يَتَلَوَّى حتى تَصَلَّبَ ظهره و برزت عيناه بعد سماعه نعيق مخيف صَدَرَ من داخل أذنه اليُمنى. وقف كما لو كان يبحث عن أحد يثبت له أنَّ ما سَمِعَهُ حقيقة، لكنَّ النَّعْقَةَ الثانية كانت أصدق من أيِّ إثبات، فقد استَمرت متواصلة بشكل مرعب في أذنه حتى بدأت تخرج منها ببطءٍ غمامةً كبيرةً مَنَعت نعيم من سماع صوت صراخه. فَوْرَ خروجها بالكامل التفت يميناً لرؤية الغُراب لكنَّهُ لم يرى شيء، فقط استمر بسماع النعيق الذي كان يقترب و يبتعد بطريقة يزيد فيها الاقتراب و يَقلُّ معها الابتعاد. بدأ النعيق يتكاثر بوتيرة متسارعة إلى أنْ اختفتَ فواصل الصمت بين كل نعقة و أخرى، فما تكاد النَّعْقَةُ تَخْفُت في طريقها إلى الزوال حتى تصدح النَّعْقَةُ الجديدة أشد صوتاً و أكثر رعباً. صار نعيم يُتابع الصوت بالنظر دائرياً في جميعِ الإتجاهات كما لو كان وَسْطَ عاصفَة من النَّعيق حاول جاهداً إبصار الغراب في غياهبها بلا أي جَدوى، ليدركَ أنَّهُ تحت وطأة مواجهة سَمْعيَّة لن يخرَجَ منها إلّا بفنائه بعد الارتطام القادم لا محالة. و في لَحظَةٍ

صفاء شاذة، أيْقَنَ خلالها أنَّ غراب إدجار آلان بو ما هوَ إلَا نبوءة وجدت طريقها إليه بعد أكثر من مئة و خمسين سنة، رَضِيَ بالهلاك، فقام، بحركة يائسة، بِثَنْيِ ركبتيه، و وضع يديه فوق رأسه بوضعية الحماية من هجوم طير جارح. و ما كانت أقوى المعجزات لتُزامن قيامه بتلك الحركة مع لحظة تنفيذ الغراب لهجومه دون عَلْمِهَ أبداً أنَّ كلاهُما ما مَلَكا إلا فرصة واحدة، هي تلك التي أضَاعَها الغرابَ بكل شموخ و كبرياء، و كَسبَها نعيم بحركة يائسة و رضاء بالهلاك، فنجى نعيم و هلك الغرابَ حينما حالَ بين عيني نعيم و القمر، ليَتَصَنَّمَ هناك بفعْل أيْدٍ خفية بدأت تَمُطُّهُ من جميع الجهات حارصَةً على إبقائه قَطَعةً واحدةً. راح يصرخ بشَجَنٍ عميقٍ أبْغَضَ النجاة إلى نَفْسِ نعيم. و بَقيَ المَطُّ و الصراخ عنوانَ نهايته حتى استحال إلى مستطيل أسودَ اللون سرعان ما ظَهَرَ أمامه التاجر. حاول نعيم الإختباء منه خوفاً من مطالبته بإرجعاء الخاتم. لكنَّ التاجر كان في ملكوت آخر لا يرى فيه سوى المستطيل. قام بالنفخ في أحد زواياه، فغدا حقيبة سفر فَتَحَها التاجر و وقف يحرسها من مجموعة أشخاص هبطوا من القمر. بدوا أول الأمر مجموعة نقاط سوداء تَكْبَرُ كلما تقدموا في الإقتراب. لم يَجْد صعوبة في معرفة أنَّهُم يقصدون التاجر، لكنَّهُ عجز عن تحديد هَوِيَّاتُهُم، و ما مَيَّزَهُم إلا بعدما وقفوا أمام التاجر، عائلته، أبو طارق، وفا، و دارين. توجهوا للدخول في الحقيبة، فأوْقَفَهُم التاجر. راح أبو طارق و السيد إبراهيم يُكَلِّماهُ بكل هدوء و تفاهم، فيما وقفت دارين و الوالدة يتهامسان كأُمٍّ و ابنَتَها، أمَّا وفا شَدَّ عضلات صدره بعدما أبدى إياد إعجابه بجسمه، و طَفِقَ يَسْتَوْضِحُهُ كيفَ

تَمَكَّنَ من رسمه بهذا الإبداع. و دونَ سابقِ إنذار ضَجَّ الهدوء و تَبَاعَدَ التفاهم، فَنَزَحَت الأبصار و الأسماع لحوار التاجر و الوالدَيْن. ابتدأ حوارهم بالمصافحة، رآها نعيم. و بعد قليل من الكلام، رفع ثلاثة أصابع فقط، فصدرت معارضة خفيفة منهما القصد منها إعادة التباحث حول عدد الأصابع المرفوعة. أبدى التاجر موافقة مُبْتَسِمَة، لكنَّ هذا لم يمنعه من رفع نفس الأصابع مرةً أخرى. حاولَ كِلاهُما دفعه، فَلم يلزمه إلا إصبعين لصَدِّهما. عندَها استداراَ نحو البقية و أخبرهم السيد إبراهيم بقرار التاجر. انطلقت صَيْحات الاستهجان و رُفعت الأيدي مُسْتَنْكِرَةً جَوْرَ القرار. فأومأ إليهم التاجر أَنَّ الأمر ليس بيده، فالقرار اُتُّخِذَ في الأعلى و هوَ مُجْبَرٌ على تدنيسه من الأسفل. حاولوا حَوْزَ عَطْفه ببريق الشفقة في أعْيُنِهم و رفع إياد عالياً، فَضَحِكَ مُستهزئاً مُشيراً بالتشاور فيما بينَهم لاختيار ثلاثة. «نَذل» شَتَمَ أبو طارق التاجر قبل أمره البقية بالتَحَلُّق حوله للتفاوض. نفذوا القرار بصمت، عدا السيد إبراهيم إذ سَحَبَهُ من المركز و أدْخَلَهُ ضمن محيط دائرَتهم. راقَبَهُم نعيم فَرِحاً بتَفاوُضهم الراقي، فيما كان التاجر يَتَطَلَّعُ إليهم بسخرية و كأنَّهُ على علم مُسْبَق بأنَّ أبا طارق سيقوم بمسك يد الوالدة مُصِرَّاً على مُرافَقَتها له، ليقوم السيد إبراهيم بتوجيه ركلةً لخَصْيَتَيْه آذناً بانتهاء المفاوضات و بدء الصراع. تَأهَّبَ كُلُّ شخص في موقعه يَتَلَفَّتُ يميناً و يساراً، مُلتَبِساً عليه الحليف من الغريم. «انتظروا» تَوَغَّلَ إياد لمركز الدائرة صارخاً، و رافعاً يديه كشرطي سير يُوقفُ المرور من جميع الإتجاهات. قام بدايةً بإيقاف تَقَدُّمهم عَبْرَ الإستدارة بيديه عشوائياً، و حينَ استجابوا له، راح يمتص

غضبهم بتثبيت يديه أمام وجه كل واحد منهم بسرعة و مهارة تُشْعِرُهُ بأفضلية تأثيره دون تَنْقيصها من أهمية تأثير البقية. و بعدما تأكد أنَّ أفعالهم أصبحت طَوْعَ يديه، قام بإشعال غضبهم، الذي كان في طريقه للخمود، مجدداً بالإلتفات فجأة نحو التاجر مُجَلْجِلاً «ارجموا الشيطان». بَرَزَت أعيُنُهُم صَوْبَه كذئاب اشْتَمَّت رائحة دم ساخن. صاحوا جميعاً، ناظرين إلى بعضهم، صَيْحَةَ تَكاتُف. ثم أطلقوا سيقانَهُم صوب التاجر، و أفواههم مفتوحة على وُسْعها كاشفَةً ما يَحْويه مخزون مُفْرَداتهم من ألفاظ فاحشة. وَضَعَ نعيم يديه فوق رأسه مَكْروباً لما آلت إليه الأمور، فيما بانت على التاجر ملامح المُجْبَر على فعل شيء لا يريده. ارتطموا به لإسقاطه أرضاً، لكنهم تفاجأوا بارتدادهم عنه فيما بَقيَ واقفاً مكانه، و كأنَّهُم ارتطموا بلوح زجاج مُقَوَّى. أشار لهم وفا بالإنقسام لثلاث مجموعات، مجموعة تتجه للوسط مباشرة، و المجموعتان الباقيَتان تَلْتَفُّ إحداهُما من اليمين و الأخرى من اليسار، و هكذا ينجحون في تشتيت التاجر. راقَت لهم الفكرة التي سرعان ما وَسَمَها الفشل بعدما قام التاجر، و هو واقف مكانه، بإطالة ذراعيه بشكل مخيف أعاد المجموعات الثلاث المقْدامة لمجموعة واحدة مَخْذولَة. تَثَبَّتوا أنَّهُم في مواجهة كائن غريب مُنْتَحل هيئة بَشَريَّة، فبدأت الهزيمة تَتَمَكَّنُ من أنْفُسهم مع بداية بحثهم عن الأمل في عيونهم الفائضة باليأس. كاد السيد إبراهيم أنْ يَقْتَرح إجراء قُرْعَة لعَبَثيَّة المُقاومة، لكنَّهُ جَفَلَ إثْرَ صَرْخَة نَدَت عن إياد رافَقَت ركضه وَحيداً صوبَ التاجر. نظر نعيم مدهوشاً لتَصَوُّره إياد كنملة غاضبة مُتَوَجِّهَةً لقتال فيلٍ ضخم. كان التاجر يراقب دُنُوِّ إياد منه و ابتسامة باردة

تعلو وجهه. و قبل خطوات قليلة، قفز لخَتْم لكمة هوائية على خَدِّ التاجر، فَتَجَنَّبَها هذا الأخير جاعلاً إياد يهوي داخل الحقيبة. ظَلَّ الذهول يكسو ملامحهم فيما التفت إليهم التاجر مُبتَسماً رافعاً علامة النصر. أما نعيم فقد اطْمَئَنَّ لخروج إياد من هذه المعركة. استيقظ وفا قبل الوالدَيْن و الأُنْثَيَيْن من هَوْل المفاجأة، فصرخ و ركض مثلما فعل إياد. و حينَ قَدَّرَ أَنَّهُ أصبح على مسافة مناسبة لتوجيه اللكمة، تفاجأ بإخراج التاجر عُضْوَهُ، فما كان من وفا إلّا التَّوْلِيَةَ هارباً بعدما رأى قضيباً أسوداً يعلو قضيباً أبيضاً يَبْرُزان من عانة واحدة. خَجلت الوالدة و دارين مما حصل، فَغَطَّتا أعْيُنهما و أطْلَقَتا ضحكات مكتومة، بينما وجدَ السيد إبراهيم و أبو طَارق ذريعةً أنْبَل من ذريعة الحقيبة للقضاء على هذا القذر. بَلَغَ سَخَطَهُما أُشُدَّهُ خلال جَرْيهما للإجهاز عليه. و على بُعْد خطوة من نقطة الإلتحام، تراجع السيد إبراهيم مُفاجئاً أبا طارق الذي احتار ما بين توجيه نظرة إستفهام للسيد إبراهيم، و وقوفه وحيداً في مواجهة التاجر، قبل بُروز عينيه إثْرَ تَلَقِّيه، للمرة الثانية، ركلة على خصيتيه. بالَ السيد إبراهيم على نفسه بعد تغلغل صَرْخَة أبو طارق لأعماق مَثَانَته. حاول الهرب بسرعة، لكن يد التاجر كانت أقرب إلى غُرَّة شَعَره، إذ سَحَلَهُ منها مُلْقياً به في الحقيبة بجوار إياد. راح أبو طَارق يَلْطُمُ رأسه «أتختار الجبان يا سفيه؟». ضحك التاجر فيما ينظر بين فَخْذَيْ أبي طارق «بَقيَ واحد، ولا بُدَّ أن يكون أنثى. و رغم ريبَتي بذلك، إلّا أنَّهُم أخبروني أنَّكَ ذكر. لذا أرجوك أنْ تُغادر». «حسناً» ابتسم أبو طارق بمكرٍ قبل تقديمه للتاجر حقائبَ مليئة بالنقود. نظر لها التاجر باحتقار ليَعْرِض

مغارات مليئة بالكنوز أمام عيني أبي طارق. جحظت عيناه، فقَدَّمَ له التاجر واحدة صغيرة. أخذها فَرِحاً لمُغادرته بأكبر المكاسب ماديّاً، و المشكوك بأمْرِها جِنْسِيّاً. بقِيت الوالدة و دارين. ظهرت الحيرة لأول مرة على وجه التاجر. و فيما كانتا تَنْظُرا له بإبتهال، لاحَظَتاهُ يَدْعَكُ موضع قلبه. بدأ التعب يتسلل للتاجر. علمت دارين أنَّها ليست بحاجة لمَرْحَمَته، و ما تَفَطَّنت الوالدة لذلكَ إلّا بعدما رأت التاجر يُعاني في مواجهَة دارين، فانضمت إليهم. واجَهَ التاجر صعوبة في ردع دارين أكثر مما واجه في ردع الوالدة. و كانت حيرته تزداد في اختيار آخر رُكّاب الحقيبة، لكنَّهُ أدرك وجوب الاختيار سريعاً، لأنَّ قُواه بدأت تنفذ و إنْ ازدادت حيرته فإنَّهُما ستتفوَّقانِ عليه، و يبدأ القتال بين دارين و الوالدة. و الوصول لهذه المرحلة يعني فشل التاجر في المهمة و تمديد فترة عقوبته في التعامل مع البشر. لذلك قام بدفع الوالدة نحو الحقيبة بإنهاك تسبب في دخول نصفها الأعلى فقط، و إبقاء النصف الأسفل مُعَلَّقاً خارج الحقيبة. حاول التاجر دفع ما تَبَقَّى من جسدها، لكن قتاله مع دارين كان يزداد ضَراوَةً. و في هذه الأثناء أرادَ إياد سحب والدته لكن والده مَنَعَهُ من ذلك. لن يستطيع التاجر دفع الوالدة إلّا بالالتفات لها بشكل كامل، و هذا سيعطي لدارين فرصة التملص للحقيبة مما يعني فشل المهمة. و إذا ما بَقيَ يُصارع دارين بهذا الشكل فَلَسَوْفَ تتفوق عليه لأنَّها، و لسببٍ لا يعرفه، كانت تزداد قوة فيما يزداد هو ضعفاً، و هذا يعني أيضاً فشل المهمة. حينها أيقنَ التاجر أنَّ مصير الوالدة هو بقائها مُعَلَّقَةً بهذا الشكل، و بِرُسوخِ ذاك اليقين في نفسه، قام بركل الحقيبة بعيداً في الهواء،

لتنطلق صرخات و صيحات دارين، و تنقض على التاجر بشكل أضحك نعيم إذ أوقعته أرضاً و راحت تَعُضُّهُ من أنفه. تمنى نعيم لو يكمل الصراع لآخره لكنَّ عيناه حَتَّمَتا عليه متابعة مآل الحقيبة التي راحت تدور في الهواء بحركات دائرية كبيرة و بطيئة، فيما رِجْلَيْ الوالدة خارجها تقوما بالرفس صعوداً و هبوطاً دون جدوى في الدخول. و فيما كانت المسارات الدائرية يصغر حجمها و تكبر سرعتها، كان ترافس رجلي الوالدة يزداد حدة. و حين بدا أنَّ ضرب رجليها على الحقيبة سيؤدي لكسرها، لاحظ نعيم أنَّ أمه أصبحت بكاملها داخل الحقيبة، فرَجا أنْ يكون قلب والده رَقَّ، و تَضَرَّعَ ألَا يكونَ إياد ارتكب جريمة قتل. و بدخول الوالدة هدأ رَوْعُ الحقيبة، فغَيَّرَت حركتها من الشكل الدائري للإندفاع بخط مستقيم كنيزك يخترق عَبَابَ السماء لصنع فجوة في الأرض. إلَا أنَّ الحقيبة ما كانت بحاجة لصنع فجوة، ففَجْوَتها كانت مُصنوعةً سَلَفاً ألَا و هيَ جَيْبُ نعيم الأيمن إذ اخترقته مُخَلِّفَةً شعوراً بحرارة حارقة أعلى فخذه جَعَلَتْهُ يَهْرُشَهُ، هَرْشاً تَفَوَّقَ على هَرْشِ إياد لمؤخرته، ليَتَّبِعَ فضوله بعد ذلك برؤية الحقيبة، فَدَسَّ يده في جيبه الأيمن فَما وجد سوى سيجارة و علبة كبريت محمود. أعاد النظر في السماء، فوجدها عادت إلى طبيعتها. نظر للقمر و للطريق الترابي، فلم يجد شيء غير منطقي. وضع السيجارة بين شفتيه، ثم أشْعَلَها. سحب النَّفَسَ الأول، فراح يَسْعُلُ سُعالاً شديداً تَخَلَّلَهُ خروج سحابات دخان مُتَفَرِّقة التَحَمَت ببعضها مُشَكِّلَةً سحابة على هيئة دارين. ما أنْ رآها حتى سَحَبَ نَفَساً ثانياً طويلاً لا سُعال فيه، تَبَخَّرَت معه ملابسهُ مُعاوِنَةً الغمامة الثانية، غير واضحة المعالم،

على التهام سَحابَة دارين، مُمَهِّدَةً الطريق لتَنْقيَة ذاكرته بثلاث كلمات تَصادَفَ خروجهن مع دخول الثانية الصَفَر لعامه الثامن عشر «ما تزال صغيرة».